سلسلة الدراسات الفكرية

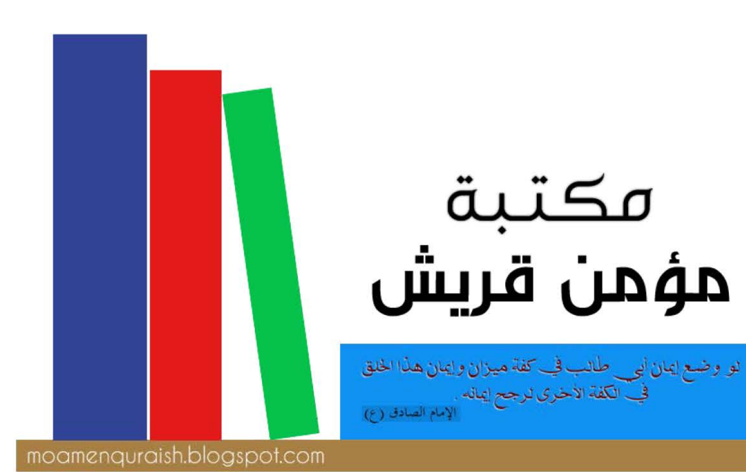
القيادة وتجربة الفعل المقاوم

في لبنان

الدكتور غسان طه



بيروت - لبنان - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 01/471070 علم وخبر 200 / أد


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

القيادة وتجربة الفعل المقاوم

في لبنان

إن الأفكار والاتجاهات الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي منتدى الفكر اللبناني

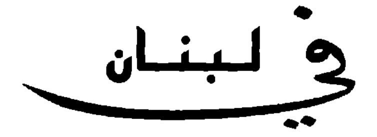
اسم الكتاب: القيادة وتجربة الفعل المقاوم في لبنان

المؤلف: د. غسان فوزي طه

الناشر: منتدى الفكر اللبناني

الطبعة الأولى: حزيران ٢٠١٠م - شعبان ١٤٣١هـ

القيادة وتجربة الفعل المقاوم



المؤلف

الدكتور غسان طه



الفهرس

الفهرس ٥

المقدمة ٧

الفصل الأول: تجسدات القيادة ١٣

١- القيادة -حفريات المفهوم ١٣

٢-أنواع القيادة ١٨

أ-القيادة الكاريزمية ١٨

ب- القيادة الرئاسية ٢٨

ج- القيادة الدينية ٢٩

الفصل الثاني: القيادة ومحددات الاستنهاض ٣٣

١- الرمزية الدينية للقيادة ٣٣

أ- دور الرموز ٣٣

ب- المكانة الدينية ٣٥

٢- محددات الاستنهاض ٣٩

أ-المقاومة ومنظومة القيم ٣٩

ب- الذاكرة الجمعية ٥٣

ج- الفعل المقاوم بين المبادرة والمغامرة: ٥٥

الفصل الثالث: القيادة والخطاب المقاوم............................٦١
١- مفهوم الخطاب ٦١
٢- شكل الكلام ٦٦
٣- في مضمون االكلام.......................................٦٨
أ- الهوية والسلطة..٦٨
ب- الخطاب والهوية ٧٩
ج- الخطاب واتجاهات السلوك ٨٤
• تعزيز الاتجاه..٨٤
• تكوين الاتجاه..٨٧
خلاصة ٩١

المقدمة

شكلت المرحلة التاريخية التي انطلقت خلالها المقاومة الإسلامية في لبنان مرتكزاً أساسياً في الالتفاف الجماهيري حولها في سائر الأقطار العربية والإسلامية، ذلك أن المقاومة لم تطرح مشروعاً تحريرياً يتصل بالأرض اللبنانية وحسب، وإنما طرحت مشروعاً استنهاضياً يتطلع إلى إصلاح الوضع المأزقي في العالم العربي والإسلامي الناتج عن تقدم المشروع الصهيوني في المنطقة.

لم تكن المرحلة التاريخية لترتسم ملامحها منذ لحظة إصطدام الاحتلال الإسرائيلي بالمقاومة الإسلامية في لبنان، بل تمتد بتداعيتها الدراماتيكية إلى تحويل مجرى الصراع نحو الحلول الاستسلامية التي ارتسمت أولى ملامحها منذ كامب ديفيد وحتى ما بعد مؤتمر مدريد في مطلع تسعينات القرن العشرين.

في حين تجلت أولى الإخفاقات الصراعية بعدم نجاح المشروع الناصري والذي التفت حوله الشعوب العربية مظهرةً التأييد لعبد الناصر إيذاناً منها بحل معضلة الصراع، غير أنها انتهت إلى الإحساس

بالخيبة والمرارة والإحباط بعد نكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧.

وقد شكل بروز المقاومة الفلسطينية غداة النكسة أملاً جديداً من شأنه إعادة الإحساس بالقدرة واستعادة التوازن المفقود بالاستناد إلى نهج جديد في المقاومة الشعبية المسلحة كبديل عن منهج الاستخدام الرسمي في خوض الصراع. وقد شكلت المقاومة الفلسطينية موئلاً ومرجعية للاحتضان الشعبي الذي أظهرته الشعوب العربية والإسلامية بمعزل عن أنظمتها التي عانت من الانحدار والتراجع في هذا المجال بعد السقوط التاريخي للمشروع القومي في المنطقة.

غير أن لحظة دخول جيش الاحتلال الصهيوني إلى لبنان، والذي أدى بتداعياته إلى إخراج منظمة التحرير الفلسطينية، أعاد إلى الواجهة الإحساس بالخيبة والفشل بعد الآمال التي كانت معقودة على مشروع المقاومة الفلسطينية المسلحة، لاسيما وأن الجيش الصهيوني كان قد دخل إلى بيروت كأول عاصمة عربية منذ بداية الصراع العربي الإسرائيلي. وفيما كان المشروع الصهيوني يتخذ منحى تصاعدياً، راحت طلائع المقاومة الإسلامية التي تشكلت لحظة الاحتلال، توجه ضرباتها لجنوده في أماكن وجوده في مختلف الأراضي اللبنانية، فآذنت بخوض صراع مرير حتى تحرير الأرض والمقدسات.

كان يمكن للمقاومة أن تكون، بنظر الشعوب العربية، كإحدى التجارب التي سرعان ما تؤول إلى الأفول بفعل الإحساس بفقدان الأمل الناتج عن الخلل في التوازنات الموضوعية للصراع. ولكن بفعل الانكفاء الجزئي

للاحتلال من بيروت وصيدا وبعض مناطق الجنوب غدا هذا الواقع الجديد أحد الرهانات التي تزخر بالكثير من الايجابية في فعل التحرير المنشود، فراحت المقاومة تحظى بالتأييد الشعبي المتزايد بتزايد وتيرة ضرباتها المتكررة للجنود الصهاينة.

وقد عمدت المقاومة، بعد الانحسار الجزئي للاحتلال في منتصف الثمانينات، إلى مخاطبة الشعوب العربية والإسلامية حين أعلنت عن أهدافها في تحرير الأرض والمقدسات، وعن أنها تشكل النقيض للمشروع الصهيوني باعتبار أن الصراع معه يدخل في دائرة الصراع الوجودي الذي يفترض تضافر جهود الشعوب العربية والأمة الإسلامية على السواء.

وبذلك تكون لحظة الانطلاق قد ارتكزت على أهمية بارزة باعتبارها تشكل أهم الحلقات التواصلية مع النزوع التاريخي للشعوب العربية والإسلامية إلى التحرير، وكتجربة مضيئة بعد سلسلة من الإخفاقات التاريخية التي طرحت إلى الواجهة السؤال حول كيفية العمل للخروج من الوضع المأزقي الحاد لشعوب المنطقة.

وبطبيعة الحال، شكلت أولى نجاحات المقاومة بالتحرير الجزئي للأرض، بداية للاحتضان الشعبي. غير أن هذا الاحتضان مال إلى الإتساع بعدما أكدت المقاومة استمرارية الفعل المقاوم الذي كانت تدور رحاه اليومية على أرض الجنوب، وعلى وقع دك التحصينات والمواقع المنيعة لجنود الاحتلال والذي ترافق على مدى سنوات مع بروز الدور

الريـادي لقائـد المقاومـة السيـد حسن نصـر الله بعدما كانـت قيادة المقاومـة يكتنفها الغموض وعـدم الإعلان عنها لوجـود الاحتلال على امتداد الأراضي اللبنانية، وبعدما تبوأ موقع القيادة فيها غداة استشهاد الأمين العام السيد عباس الموسوي.

ومما لا شك فيـه أن الفعل المقاوم المتساوق مع المرحلة التاريخية، والذي تجسد باستمراريته على مدى سنوات، أتاح هذا الالتفاف الشعبي. ولكن هذا الالتفاف اتخذ له عنواناً رمزياً تمثل بنظرة هذه الشعوب للقائد الكاريزمي كأحد إنتاجات هذه المرحلة إذ ليس من الممكن، وعلى ضوء التجارب التاريخية للشعوب، أن لا تتخذ أي حركة شعبيةً كانت أو رسميةً عنواناً لهـا يتمثل بالقائد الذي يرمز إليها ويستند إلى العزم والتصميم والإرادة في المضي بمشروعه حتى النجاح.

وقـد عدّت في العالم العربي رجالات على أنها قيادات كارزمية بنظر شعوبها لما امتلكته من هذه المزايا، وظلت تصنف في هذه الدائرة رغم أن مشروعها فـي التحرير لم يكتمل، ما يعني إن كارزمها مسنودة أيضاً إلـى المرحلة التاريخية المأزقية التي يمتلـك فيها القائد إرادة التحدي حتى ولو لم يكتب له النجاح في هذا المجال.

من جهة أخرى، فقد ساهمـت تداعيات المرحلة التاريخية هذه، في جعل المقاومة تقفز إلى واجهة الأحداث جراء المزيد من الانكفاء بفعل مشاريع الاستسلام التي تواصلت حلقاتها مع مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو وطابـا ووادي عربـة، والتي تزامنت مع عمليـات المقاومة التي راح يعلن

قائدها عن استمرارها حتى تحقيق النجاح المنشود، والذي تجسد في التحرير عام ألفين. إن رهاناتها تمثل السبل المثلى لتجاوز الوضعية المأزقية للمرحلة التاريخية والتي شكلت فيها المقاومة انقطاعاً نموذجياً عن حلقاتها الدراماتيكية المتداعية دوماً، والتي كان يفترض توفير الاحتضان الشعبي لها.

على هذا الأساس، تشكل لحظة انطلاق المقاومة في تمفصلها مع المرحلة التاريخية التي اقتضت العمل المقاوم، أحد الأبعاد الأساسية التي تضيف الكثير من الأهمية لهذا العمل، لاسيما وأنه ارتكز بحد ذاته على سلسلة من النجاحات التي تستوجب العبور نحو اكتمال أبعاده الاستنهاضية، وهو ما يستوجب مقاربة الأسس التي أدت إلى هذه الحالة التضامنية ، خصوصًا الدور القيادي ، والفعل المقاوم كما تجسّد في خطاب القيادة نفسها كقيادة متجاوزة لدائرتها الجغرافية. فبالرجوع إلى الآراء والنظريات الواردة لدى علماء الاجتماع، نجد تنوعاً في المحددات الأساسية التي تجعل من الأفراد قادة كباراً. وربما يعود هذا التباين إلى اختلاف بيئة المقاربة، ومرحلتها الزمنية، ولكنها مع ذلك تمتلك أهميتها العلمية بكونها تخضع لحقل التجربة والدراسة الميدانية، قبل أن ترتبط بأهداف غائية محددة سلفاً أي بتقديم نظرة نمطية عما يجب للقائد أن يتحلى به من مزايا لكي يكون قائداً تاريخياً يمتلك القدرة على إدارة الناس، وعلى السعي نحو تغيير واقعهم نحو الأفضل، وهو خلاف ما درج عليه الفلاسفة السابقون كأفلاطون في جمهوريته التي لا

تدار على أفضل وجه ما لم يحكمها الفلاسفة أو يتفلسف فيها الحكام، أو في مدينة الفارابي الفاضلة. غير أن المقام هنا ليس مقاربة القائد كرجل سلطة يعمل بين الناس ويرتفع عنهم درجة لإدارتهم، وإنما يرتبط بقيادة استنهاضية تبرز أولاً، ثم يأتي فعل الانقياد وإعلان الولاء والسير معه نحو قضية محددة وهي قضية صراعية متجاوزة لما يمكن تسميته بفعل السلطة على أنه إدارة للشؤون الحياتية اليومية بين أفراد شعب بعينه، وإنما تطرح القضية على أنها قضية شعب أو أمة بأسرها بمقابل الآخر أو العدو المفترض مقاومته حتى حلّ هذه القضية الصراعية. ومن هنا تأتي المقاربة لهذه القضية بالبحث والتحليل للوقوف على الأسباب التي جعلت منها قضية أمة بعينها، تلتف حولها وتعلن التأييد لها ولقائدها باعتباره يشكل رمزاً لها ويعمل من أجل نجاحها والوصول بها نحو الأهداف المنشودة. على هذا الأساس سوف تتم الاستعانة بما توصل إليه علماء الاجتماع جرّاء مقاربتهم لموضوع القيادة، وكذلك بما يتحدد عبر الواقع نفسه باعتباره يشكل خصوصية على النحو الجدلي الذي يدفع إلى بروز القائد الكاريزمي، فيما يعمل هذا القائد أيضاً على تغيير الظروف وجعلها أكثر توافقاً مع ما يرمي إليه من أهداف.

الفصل الأول

تجسدات القيادة

١- القيادة -حفريات المفهوم

تفترض القيادة وجود علاقة بين طرفين: القائد الذي يتمتع بصلاحية الإمرة والسلطة والنفوذ والجمهور أو الشعب أو الأمة التي تسلم بوجود هذه القيادة وتذعن لتوجيهاتها ولأوامرها وتدين لها بالطاعة والولاء.

ولكن من أين تتأتى هذه المشروعية للقيادة فيما تؤول إليه من حق التمتع بالإمرة والنفوذ؟ وكيف يمكن للجمهور أو جماعة من الناس أن تسلّم وتدين بالخضوع والطاعة؟

فلا يمكن لهذه العلاقة بين الطرفين أن تنشأ من فراغ، لاسيما أنه ومن حيث مقتضيات العقل، ليس ثمة ما يبرر لفرد من الأفراد أن يتمايز عن الآخرين ويعلو عليهم بحكم المساواة التي تقتضيها الطبيعة. فالأفراد متساوون بحسب الفطرة بإدارة شؤونهم الذاتية، والفرد يأبى الخضوع للآخرين إلا إذا كانت ثمة مبررات موضوعية أو طبيعية تحتم ذلك.

ومـن بين هذه المبـررات المنحكمة إلى الطبيعـة، العلاقة بين الأب وأبنائـه، وهي تفترض في أحد وجوهها حق الأب في الإشراف والتدبير وصـون مصالح أبنائه بحكم حاجة الأطفال للانقياد لـه لعجزهم عن إدارة شؤونهم الذاتية[1].

ثـم تأتي القوانيـن والأعراف والتعاليم الدينيـة لتكرس هذه العلاقة في حدود معينة. فالقيـم في المجتمعات الريفية تقتضي تقديم الطاعة للأب ولكبير السن، والقوانين الحديثة تعترف للأب بسلطة الوصاية على أبنائـه حتى بلوغهـم السن القانونية، ثم يأتي الديـن ليحثَّ على أواصر تلـك العلاقـة التي تستمر حتى ما بعد سن الرشـد حتى ولو بلغ الوالدان أرذل العمر.

وما يسري على العلاقة الوالدية يسري على سائر التجمعات البشرية حتـى تلـك الموغلة فـي القـدم والسابقة على وجـود الدولـة والتنظيم السياسي بالمعنى الحديث.

لقـد لعبت الأعراف دوراً بارزاً في تحديد الزعيم القائد الذي ينبغي علـى الجماعـة أن تدين له بالـولاء والطاعة. على أن تلـك الأعراف لم تنشـأ من فـراغ، وإنما مما يشكله الزعيم من فائـدة تعود على الجماعة في التماسك والتضامن والمنفعة التي تعبر عن حاجة هؤلاء الأفراد.

إن مـا تقدمـه لنـا المجتمعات القبليـة البائدة في أميـركا الجنوبية

(١) ناصيف نصار، منطق السلطة، دار أمواج ، ١٩٩٥ ،ص ٢٣

وأفريقيا هو صورة مدهشة لتلك العلاقة من التنظيم بين الزعامة القائدة والجماعة المطيعة، حيث تقدم تلك المجتمعات نماذج من الزعامة من حيث مواصفاتها ودورها وتصنيفها.

خلال المعارك الحربية يتمتع الزعيم بسلطة مطلقة النفوذ عندما تواجه الجماعة خطراً خارجياً أو حين شن الحملات الحربية. على أن تتوقف هذه الزعامة لتؤول إلى زعيم السلم الذي عليه نشر السلام داخل الجماعة وفض المنازعات الداخلية وحلّ الاختلافات ليس عن طريق استعماله لقوة لا يمتلكها أصلاً، وإنما بالاتكال على نفوذه وسمعته وفضائله ونزاهة كلمته التي تتكرس بفضل قدرته على إرساء السلم بين الجماعة، وقدرته الكلامية فضلاً عن وجوب كونه معطاءً من خيراته ولا يسمح لنفسه برفض الطلبات العديدة من قبل أتباعه.[1]

وإلى جانب الزعامة العسكرية والمدنية ثمة دور ريادي لرجل الدين الذي يتعين عليه القيام بالطقوس الدينية، وهو ما يعبر عن أزلية النظم الدينية بغض النظر عن كونها مقنعة، أو غير مقنعة ويفسّر ذلك لدى علماء الاجتماع، أن الإنسان منذ بدء وجوده في الغابة حاول تفسير ما يجري حوله من حركات الطبيعة وظواهرها الغامضة التي لم تكن لديه القدرة على التأثير فيها، فافترض - هؤلاء العلماء - وجود قوى خفية تحرك هذه الظواهر، أو أنه لجأ إلى الفكرة الدينية للتخلص من حالة الخوف

---

(١) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، ترجمة محمد حسين دكروب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩١، ص ٣٢.

والشـك، ذلك أن للدين وظائفـه الهامة فهو يساعد على تفسير الأحداث المعقـدة والتي تبدو بصـورة ظاهرة غير قابلة للتفسيـر ولهذا يستخدم الاحتفـالات والطقوس والعبادات الدينية ليضمـن الاتصال بتلك القوى عن طريق وسطاء يعتقد أن لهم قدرة كبرى على ذلك الاتصال.(١)

وبمعـزل عمـا يمكن أن يوجه لهـذه النظرية التي تفسـر نشوء الدين بسبب الجهل والخـوف خصوصاً من قبل العاملين في هذا الحقل نفسه الذيـن يعـدون ذلك لا يخـرج عن دائـرة الافتراضـ التـي لا ترقى إلى الملاحظة العلمية لكون رواد نظرية الخوف والجهل متقدمين زمنياً عن المجتمعـات البائدة ولا يمكن إرساء نظرية علمية في حقل اجتماعي مع افتقاد العالم والباحث إلى المحايثة والمزامنة مع الظاهرة.

وبحسـب الفهم الديني لاتّباع الديانـات السماوية ومنها الإسلام، أن ليس ثمـة مجتمعات خارج دائرة النبوّات، وأن ما كان قائماً هو انحراف عن دائرة الاستجابة للدعوات.

علـى أنـه ما يهـم في هذا الأمـر هو العـودة إلى توصيـف القيادة أو الزعامة الدينية فـي تلك المجتمعات والتي خضعت إلى تدوين وظائفها من خلال ملاحظـات الانثروبولوجيين بمعزل عـن تفسير أسباب نشوء ظاهـرة الدين. الزعامـة الدينية في اغلب القبائـل الأميركية الجنوبية هي للساحر الشامـان، حيث للشامان صورة مهمة جداً لدى المجتمعات

(١) فهمي سليم الغزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق عمان ١٩٩٢ـ ص ٢٤٠.

الهنديـة، فهو يبدو محترماً مثيراً للاعجـاب وللخشية، ذلك أنه الوحيد القادر داخل الجماعة، والــذي يمتلك القدرة ما فوق الطبيعية للسيطرة علـى عالم الأرواح والأموات والخطر، إن هذا الساحر الشامان هو عالم يسخــر معرفته لخدمة الجماعة من خلال معالجته للأمراض من خلال قواه الخارقة على بعث الحياة والسيطرة على الموت[١].

ومن بيــن هذه القبائل قبائـل الجيفارو التي تسكـن حوض الأمازون ، والتــي لم يُعـرف أفرادها إلا منــذ القرن الخامس عشــر والذين رغم استقبــال القادمين لهم في أوائل القرن العشرين لكن احتكاكهم المؤثر بالإنســان الأبيضـ لم يحصــل حتى الآن حيـث بقيت هــذه القبائل من القبائل النقية بعد قبائل الأقزام في أفريقيا[٢].

وفي الدولة الحديثة حيث يغدو الفرد مواطناً له حقوق وعليه واجبات تدخـل فــي موارد كثيــرة بينهــا الحق فــي الحيــاة والتجمــع، والارتقاء والمشاركة السياسية، والاعتراض، وواجب الخدمة والتفاني بحب الوطن والتقيـد والطاعة للقوانين الصادرة عن السلطــات العليا، حيث تتكرس سلطــة الإمرة والتزعم لدى النخبة القائــدة، غير أنها ترتبط من ناحية أخــرى بموجبات تتصل بالأفراد الذين عليهــم الانقياد والخضوع، وهي موجبــات ناشئة من طبيعــة الارتباط بمصالحهــم وغاياتهم وأهدافهم العليــا منها والدنيــا، وبمدى التزام القيــادة بالأعــراف والقوانين التي

(١) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مصدر سابق ، ص ١٤٧.

(٢) د. علي وهب، الجغرافيا البشرية، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٦، ص ١٤٢.

اقتضت ممارستهم لتلك التراتبية وإلا وضعت القيادة على محك المشروعية وجرى التشكيك والرفض والتمرد والعصيان ومحاولة تغييرها واستبدالها.

٢-أنواع القيادة

الزعامة أو القيادة هي من اللوازم المفترضة لدى الجماعات على امتداد التاريخ لما تضطلع به من وظائف تختلف بحسب المرحلة التاريخية وبحسب درجة الرقي الحضاري التي تقف عندها هذه الجماعات، وهي بحسب ذلك الحال أنواع، بينها ما يلي:

أ-القيادة الكاريزمية

خضع مفهوم الكاريزما كغيره من المفاهيم المتداولة في حقل الدراسات الاجتماعية للمقاربة والتحليل من قبل العديد من المفكرين الذين تناولوا الكاريزما كمفهوم وكدور ووظيفة تسهم في إحداث التغيير الاجتماعي.

ومن الرواد الأوائل بين هؤلاء المفكرين ماكس فيبر، الذي كان يرى أن هناك فترات تحوّل تمر بها المجتمعات بفضل وجود عباقرة وأبطال أو انبثاق فئة من الحكماء والأنبياء والمرشدين أو العلماء التكنوقراطيين.

والكاريزما مصطلح يعني "هبة الله" وهو يطلق على شخصية الفرد لتميزه عن غيره من الأفراد العاديين، بحيث ينظر إليه كقائد مزوّد بقوى وخصائص خارقة للعادة غير متوفرة في عموم الناس. قد يكون

مصدر الصفات إلهياً، أو عبارة عن صفات مثالية تدفع صاحبها إلى مرتبة القيادة في نظر الناس. يوجد القائد الكاريزمي عادةً في حالات الوهن الاجتماعي والديني والاقتصادي والسياسي ويرتكز على الطاعة للبطل والتضحية من أجل تأدية رسالة.

والقائد الكاريزمي لا يظهر عادةً في الميدان وحده، بل يظهر عادة مع جماعات ثائرة تبقى مدينة في نشأتها واستمرارها له.[١]

ويمكن للقيادة الكارزمية أن تقوم بوظائف نفسية واجتماعية وتؤمن المساندة في الانتقال من مجموعة قديمة من القيم إلى مجموعة جديدة منها. والقائد في مثل هذه الحالة هو مصدر الشجاعة والإقدام والرغبة في نبذ القديم والحماس من أجل التغيير ومن أجل تثبيت الجديد.

أما التغيير الذي يفرضه القائد الكاريزمي فهو لا يعود له وحده، بمعنى أنه ليس مستقلاً عن الظروف الموضوعية التي يظهر فيها القائد، فبنظر فيبر أن ثمة خصائص للفترة التاريخية التي تقتضي وجود القائد الكاريزمي، ومعنى ذلك أن القائد الكاريزمي قد لا ينجح في بعض الأحيان، لأن الفترة التاريخية التي يظهر فيها تكون غير مؤاتية لنجاحه.[٢]

ولا ينكر عالم الاجتماع بيار بورديو العناصر الذاتية في فهم الظواهر الاجتماعية وبينها الرجال العظام، ولكن ترتبط بعامل موضوعي آخر

---

(١) د. عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦، ص ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

هــو الوعي الجماعي للأفراد حيث يقول: إن شهرة الأشخاص الكبار من علمــاء ومفكرين وسياسيين وعسكريين وأنبيــاء ومرسلين الخ، مرتبطة بوعي الأفراد الذين يعتقدون بها. وإذا توقف هذا الاعتقاد، وما يستتبعه مــن مواقــف وتصرفــات، تــزول شهرتهم لا محالــة، ذلــك دون اعتبار الوعي عامــلاً منفصلاً عن طبيعة السلطة أو عــن الظروف الاجتماعية والتاريخية التي وجدت فيها، والوعي في هذه الحالة عنصر منها.[1]

إذاً ثمــة نوع من القيــادة كونها تمثل علاقة سلطة وإمرة، يدور حولها جدل كبير في ميــدان البحوث الاجتماعية ويتناول بنيتها وأسس تشكلها والــدور الذي تلعبه لدى الجماعة، لكون علاقة الإمرة تتدرج صعوداً لدى هذه القيادة بحسب القائد وبحسب القضية التي يعمل من أجلها، ومنهج الوصول إلى الأهداف ومدى ارتباطها بالجماعة.

وينطلق السؤال حول القيادة الكارزميــة: ما الذي يجعل هذا النوع مــن القيــادة يتمتــع بجاذبية لــدى الجماعــة أو الشعب أو الأمــة فتقدم لهــا الطاعة وتستمر في إعــلان ولائها لها وتكرس الاعتــراف باستمرار اضطلاعهــا بالــدور القيادي في عــدة دورات انتخابية كمــا في القيادة الكارزميــة الرسميــة في المجتمعــات الديمقراطية، أو فــي المجتمعات التي يسود فيها الاستفتاء، أو في القيادة غير الرسمية التي تتبوأ موقعها القيــادي دون الحاجة إلــى الأطر الانتخابية بل تتكرســ زعامتها بسبب

---

(١) د. علي سالم، منهجيات في علم الاجتماع، دار الحمرا، بيروت ١٩٩٢، ص ١٧٦.

الاعتراف الشعبي بها. وقد يتخطى الولاء لها حدود الطاعة، إلى تماهي الأفراد معها تماهيـاً كلياً حيث تدخل في وجدان ووعي الأفراد ويتخطى دورهـا حـدود السلطة إلـى السلطان الـذي يأخذ النفوس على محمل الطاعـة والتقيد بأوامرها حتى ولو طلبـت من الأفراد التضحية بالنفس من أجل الوصول إلى الأهداف التي يطرحها القائد؟

درج الاعتقـاد على أن تشكل هذا النوع من القيادة أساسه مواصفات سلوكية وعقلية ونفسية وجسدية يمتلكها الزعيم القائد. ويجب أن يوحي القائـد الكاريزمـي بالثقـة وبالكفاءة والدرجـة العالية مـن التميز عن الآخرين.

غيـر أن هذه الأفكار تبقـى أسيرة أطرها النظريـة، وتدخل في باب الافتراض والغائيـة بمعنـى أنها تجسـد الأسـس التي ينبغـي للزعامة الكارزمية امتلاكها وليس الزعامة بعينها كما هي.

فثمـة كثير مـن الزعمـاء الكارزميين ممـن لا تتكامـل لديهم هذه المواصفـات وهي ناشئة بطبيعة الحال مـن قصور الإنسان وعجزه ومن عدم وجود الإنسان الكامل أو إنسان ما فوق.

ولذلـك انتقلـت الدراسات نحـو التحديـدات الميدانية للقيـادة أي دراستهـا كمـا هي في كينونتهـا وليس من ناحية ما يجـب أن تكون عليه هذه القيادة.

ذلـك أن تصـور مـا ينبغي علـى القائد التحلـي به ليس واحـداً بين الدارسين سواء كان قائداً عادياً أو كارزمياً.

يرى باريتو أن نخبة القيادة تتشكل من الأكفأ والأفضل والأحسن أي من الذين حققوا نجاحات على المستوى الاجتماعي وليس الأخلاقي. وهذه النخب تملك من النفوذ ما يسمح لها بأن تؤثر في خيارات الأقلية الحاكمة وتحتل مواقع مميزة في الهرم بفضل مداخيلها أو حظوتها الاجتماعية.

يرفض ريمون آرون نظرية باريتو ويرى أنه منافٍ للمنطق أن ينتمي إلى مفهوم النخب كل الذين حققوا نجاحات بمن فيهم جماعة اللصوص، ويرى أنه من الصعب جداً تحديد شكل الإطار الذي تتم في داخله صناعة النخب من مواد النجاحات. ويربط مبدأ تقسيم النخب بممارسة النخب الديمقراطية التعددية. فهناك قادة سياسيون، وقادة إداريون، وقادة روحيون محركون للجماهير. بمعنى أن الممارسة الديمقراطية تأخذ بمبدأ المفاوضة والتوافق بين النخب دون المس باستقلالية الجماعة[1]. بإزاء ريمون آرون في نقده لباريتو باستبعاده الجانب الأخلاقي، فإننا نجد المجتمعات الحديثة ما زالت تعتبر هذا الجانب مطلوباً لدى القادة، وتكاد تملأ الصفحات اليومية للجرائد بالحديث عن الزعماء القياديين لدى الغرب متكلمة عن انخفاض شعبيتهم وعدم اعتبارهم قادة عظاماً بسبب الفضائح التي يتعرضوا لها من هدر وفساد وكذب، وعلاقات غرامية.

---

(١) كلير صعب، مجلة العلوم الاجتماعية، صادرة عن مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية الجامعة اللبنانية، تشرين أول ١٩٩٧.

أما وجهة النظر التي يمثلها ريمون آرون والتي تحصر تشكل النخب القيادية بطبيعة المجتمعات الديمقراطية وبتوزيع القادة على مراتب وقطاعات متمايزة، وبأنها تسود انطلاقاً من مبدأ التوافق والمفاوضة التي تحول دون تعارض مصلحة النخب القيادية مع مصلحة العامة أو دون أن تعلو عليها، فتلك الوجهة تسود حالياً في الغرب لدى العديد من المفكرين وتصح على القيادة غير الكارزمية التي لم يعد لها وجود في الغرب انطلاقاً من الظروف الموضوعية التي تلعب دوراً في هذا الشأن، ومنها الآلية الديمقراطية التي تتيح للنخبة القيادية الوصول إلى سدة الموقع القيادي. تلك الآلية، تجعل القائد عاجزاً عن الاستمرار بموقعه القيادي بسبب طبيعة التنافس التي تسود، فضلاً عن استناد هذه الآلية إلى مبدأ الأكثرية التي تجعل قادة كثراً يتبوأون هذا الموقع القيادي باستحواذهم على أكثر من نصف عدد الناخبين ما يعني أن قيادتهم لا تعني التسليم الغالب أو الكلي. فثمة أقل من النصف أو الثلث أو الربع ممن لا يجدون فيه المؤهلات التي تناسب طموحاتهم بل كل ما في الأمر تتكرس سلطته بفعل القانون، حيث يجب التقيد بالمراسيم والتشريعات التي يصدرها القائد مع فريقه العامل في المؤسسات الدستورية والتي تنطبق على الجميع[١].

وقد يسود الاعتقاد، أنه لم تعد ثمة حاجة للكاريزما في الزعامة،

---

(١) أنظر كلير صعب، مجلة العلوم الاجتماعية، مصدر سابق.

أي إلى الرجـل العظيم أو الخارق للعادة فـي المجتمعات الغربية بسبب آليـة صدور القرار السياسي عن هيئة جماعية، ووجود معارضة تستطيع استخـدام نفوذها في التأثير على مجريات القرار السياسي. فضلاً عن ذلـك، ثمة استشاريون متخصصون ومراكز دراسات من ذوي الكفاءات تعين على اتخاذ القـرارات السياسية وعلى رسم السياسات الاجتماعية والاقتصادية وعلى التخطيط في سائر المجالات.

إن وجود القيادة الكارزمية يرتبط لدى بعضهم بالمجتمعات السابقة على الديمقراطيـة خصوصاً في المجتمعات الشرقيـة التي يستبد فيها الزعيـم وتتكرس زعامته بسبـب شيوع الجهـل وانعدام الوعـي الزائد لـدى الجماهيـر بمصالحهـا، فضلاً عن عقـدة الانسحاق التـي تسلب شخصيـة الأفراد على مدى حقبات تاريخية من ممارسة الطغيان والتي تجعـل الأفراد مشدودين نحو التعويض عـن الشعور بالنقص عن طريق التماهي مـع القائد، الذي تجده ممتلكاً لصفات تجعل منه رجلاً عظيماً فتتماهـى معه، ليسـود لديها شعور بالتفوق والعظمـة. هذا التماهي بين الحاكـم والشعب يتم حين يصبح الكل واحـداً. في الليلة التي مات فيها عبـد الناصـر عـام ١٩٧٠، ذهل العالم لذلـك الذي صنعـه العرب على امتـداد أقطارهـم، ولا سيما ما فعلـه المصريون من بـكاء وعويل على نحـو هستيري، ثـم كانت الجنازة التـي سار فيها ملاييـن البشر يبكون ويصرخـون ويلطمون الخدود. ومن وجهة النظـر الغربية، فإن ما جرى فـي أسبـوع وفاة عبد الناصر بـدا غير مفهوم على الإطـلاق لدى العقل

الأوروبي، إذ كان من الصعب على قوم تخضع حياتهم لعمليات حسابية عقلية، أن يفهموا تلك الحالة من الاكتئاب الجماعي التي بدت لهم كوباء انتشر خلال ساعات معدودة، فاستسلم الناس له، بحيث فقدوا القدرة على تمييز ما يفعلون، فغاب عقلهم الواعي وتركوا قيادتهم لمجموعة من الانفعالات الحادة.[(١)]

ولأن صورة عبد الناصر في المنظور الغربي الاستعماري كانت صورة دكتاتور وطاغية يحتقر الشعب بقسميه الواعي وغير الواعي فيعامل الأولين بالمعتقلات والسجون، ويخضع الآخرين لعمليات غسل مخ عنيفة تحول بينهم وبين الوعي بمصالحهم، فقد كان طبيعياً وفق تطبيق المحكمات الأوروبية أن يفرح المصريون لموت من عذبهم وامتهن إرادتهم، أو أن يكتفوا بالترحم عليه انصياعاً للمشاعر الدينية التي تؤثم الشماتة بالموت. أما أن تنتشر تلك الحالة العنفية من الاكتئاب الجماعي فإن الأمر يصبح عسيراً على الفهم.

هذا الاعتقاد هو خاطئ بلا شك لأن طبيعة المجتمع البشري حتى مع نظام العولمة يقدم نماذج تُظهر أن القائد العظيم أو المتميز لا زال مطلباً ويمكن أن يحيل إلى طبيعة الفطرة البشرية، فما الذي يرفع أشخاصاً في عصرنا الحديث إلى الاستمرار كرجال قياديين في سدة الحكم لدورات انتخابية متتالية من أمثال مارغريت تاتشر التي لقبت

---

(١) - امام عبد الفتاح امام، الطاغية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٨٣، المجلس الوطني الكويت ،ص ٣٢٦.

بالمرأة الحديدية في بريطانيا، أو أمثال هلموت كول في ألمانيا وميتران في فرنسا قبل أفول نجم هؤلاء الزعماء.

لقد عرفت أوروبا وأمريكا زعماء عظاماً بنظر شعوبهم كنابليون وديغول وجورج واشنطن وجون كينيدي وريتشارد نيكسون، ولكن من غير الصحيح أن الديمقراطيات الحديثة لا تستوجب رجالاً عظماء بل إن سرعة أفول نجم الزعماء الحاليين بسبب فشلهم في تحقيق الرضا لدى شعوبهم على مستوى الداخل، وفشلهم في النجاح في المهمات التي تصدوا لها على صعيد الأمم في الخارج، من حرية وتنمية وسيادة الوفاق والسلام بين الشعوب، تجعل من القيادة الكارزمية مطلباً لدى هذه المجتمعات وهم يفتقدون إليها. وفي هذه الوجهة يرى روبرتو عالم الانتربولوجيا في جامعة نوتردام الأميركية، أن ثمة مواصفات مطلوبة للزعيم وهي مواصفات لم يكن متوقعاً من زعماء الماضي أن يتحلوا بها، فهو يحدد المميزات المطلوبة من الزعيم بقوله: "يجب أن يكون الزعيم دون جواناً، أنديانا جونز، مغامراً وأينشتاين مجتمعين في شخص واحد، يجب أن يكون جذاباً مثيراً وبارداً رابط الجأش في آن واحد" ويتابع "إن دول أميركا اللاتينية والعالم العربي لديها مشكلة النظرة الألوهية والمنزلة المقدسة التي تراها في زعمائها. في المقابل إن الديمقراطيات الحديثة لديها مشاكل من نوع آخر تحاول دائماً استنباط

أفكار جديدة، أما زعماؤها فإنهم سريعو الأفول"[١].

لقد غابت القيادة الكارزمية عن ساحة الغرب ولكن ذلك لا يعني غيابها عن الوجدان الذي إستبدلها بنماذج أخرى تم إحلالها مكانها، وهي النماذج الناجحة التي تقدم صورة الإنسان الكامل أو صورة البطل الأسطوري التي تصنع بحرفية ماهرة في أفلام السينما في هوليود، ذلك البطل الذي يمتلك كل امكانيات القوة والقدرة والذكاء والمبادرة، والذي يظهر بوجهه الحسن وقامته المتناسقة وقدرته على في السيطرة على زمام الأمور حين تحبس أنفاس المشاهد وتتسارع نبضات قلبه ويتصبب عرقاً، إزاء البحث عن حل المعضلة التي حبكت بذكاء مدهش، حينذاك يظهر البطل الواثق من نفسه هابطاً من طائرة أو سيارة تسير بسرعة جنونية حاملاً بندقية لا تكاد رصاصاتها تنفذ، فترتاح النفوس. إن تلك النماذج من الأبطال ليست من صنيعة المخرج فحسب، وإنما هي صنيعة الواقع الاجتماعي المؤلم الذي يعيشه الغرب بالداخل من سرقة وعصابات مخدرات، وجريمة منسقة تستوجب السيطرة عليها أبطالاً ونماذج على غرار ما تقدمه هوليوود، وهي وليدة أزمة علاقة الغرب مع الخارج في زمن الحرب الباردة وفي فيتنام، وصراعه مع ما يدعوه مع الإرهاب الأصولي.

وليس من الغرابة والحال كذلك، أن يصل بطل السينما في وجدان

(١) انظر كلير صعب، مجلة العلوم الاجتماعية، مصدر سابق.

تلك الشعوب إلى مصاف الرجال العظام، الذين يمني الفرد نفسه بمشاهدتهم عن كثب والحظوة بتواقيعهم، حتى تكاد الساحات تمتلئ لأجل مغنٍّ أو ممثل مشهور بجماهير أكثر مما يستطيع حشده رجال السياسة الماهرون. وليس من العجب والحال كذلك، وصول ريغان من السينما إلى سدّة الرئاسة الأمر الذي يحمل في طياته دلالات، بينها الرغبة الشديدة في إسقاط صورة البطل من عالم السينما إلى عالم الواقع، أي عالم السياسة الذي يفتقد إلى هذه النماذج التي باتت حاجة مجتمعية، بعدما فقدت الكثير من المزايا والصفات الحميدة التي هي مطلب بشري على أية حال.

ب- القيادة الرئاسية

تكتسب هذه القيادة دورها من القوانين والمبادئ والأسس التي تضعها الجماعة سواء كانت جماعة أو شعباً في دولة، وهي تحصل عادة بموجب التعيين أو الانتخاب وبمدى رؤية الجماعة أو الشعب لزعامتها أو قيادتها من قدرة على الإضطلاع بهذا الدور بسبب التحلي بمواصفات ذاتية واستعدادات تم اكتسابها بفعل الخبرة والمران والجهد المضني والعمل الدؤوب.

وبمجرد الاضطلاع بهذه المكانة، تفترض طبيعة هذه المكانة ممارسة الدور القيادي، وإظهار الطاعة والانقياد من الآخرين طالما حافظت القيادة الرئاسة على التقيد بالصلاحيات الممنوحة، وبغايات وأهداف ممارسة السلطة.

على هذا الأساس يمكن تسمية هذا النوع من القيادة بالقيادة الرسمية لاكتسابها الطابع القانوني في الاستحواذ على المكانة وممارسة الدور.

فموارد التسليم والاعتراف بدور هذه القيادة ليس منوطاً بالقوانين وحدها دائماً، وبرؤية الأفراد لقدرتها على تحقيق غاياتهم وأهدافهم. لذلك يمكن أن يتعرض هذا النوع من القيادة للكثير من التشكيك والرفض حين يشعر الأفراد بعجز القيادة عن تحقيق ذلك، فضلاً عما يتعرض له من تحدي إقصائها عن السلطة بفعل رغبة آخرين ممن يجدون أنفسهم مؤهلين للاضطلاع بهذا الدور مستفيدين من القوانين التي تسمح لهم بالتنافس على السلطة، لكن في العمق، وبمعزل عن القوانين التي تضعها الدول كآليات لتداول السلطة، تبقى السلطة. مطلباً إنسانياً لما تمثله من جاذبية لا تقوم فقط على الوسائل الهائلة التي تضعها في تصرف صاحبها، بل تقوم أيضاً على الغموض الذي يكتنف العلاقة بين إرادة الحاكم الخاصة وإرادة الدولة الواحدة الجامعة. فمن الطبيعي والحال هذه، أن يتزاحم الطامحون إلى السلطة في الدول، وأن يكون تزاحمهم شديداً وقاسياً بحيث لا ينتهي مؤقتاً إلا بغلبة تامة لواحد منهم على الآخرين أي بفوزه بتفويض السلطة[1].

ج- القيادة الدينية

وهي شكل آخر من أشكال القيادة لكونها تترتب عليها علاقة الإمرة

(١) ناصيف نصار، منطق السلطة، مصدر سابق، ص ١٥٣.

والطاعة بين القائد الديني والأتباع. وهم بوصفهم مؤمنين بدين أو مذهب ما من مذاهب الدين، عليهم الانقياد والانصياع وتقديم الطاعة للقائد الديني الذي يتصدى بوصفه عالماً بأحكام الدين وبعالم السماء والغيب، لتفسير وشرح وتبيين تلك الأحكام وما يتصل بها من بعض الغموض، ومن توضيح لدلالاتها المتعلقة بالطقوس الدينية ومراسم العبادات وأشكال تأديتها.

فشرط تلك العلاقة هي المعرفة والتعمق والفهم من قبل القائد الديني لأحكام الدين للقائد الديني، والتي تجعله متمايزاً عن غيره من رجال الدين وعن عامة المؤمنين فضلاً عن التقيد بأحكام الدين ومترتباته أكثر من غيره.

وقد يطرح القائد الديني نفسه بين الأتباع فتكرّس قيادته لديهم بوصفهم عامة المتدينين أو يجري انتخابه من قبل نخبة من رجال الدين كمجمع الكرادلة بانتخابهم للبابا الذي هو رأس الكنيسة لدى المسيحيين، أو لجنة من الخبراء لدى بعض الطوائف الإسلامية، أو بواسطة التعيين الرسمي من قبل السلطة السياسية التي تنأى بنفسها عن احتكار السلطة الدينية بوصفها سلطة تتعلق بشؤون الآخرة دون شؤون الدنيا التي هي من متعلقات السلطة السياسية.

أما الشرط الآخر في تقديم الطاعة، فمرده إلى شعور المؤمنين تجاه هذه القيادة بتلبية رغبتهم العميقة والدفينة في الخلاص الأخروي بعد الموت أو نيل السعادة في دخول الجنة.

تبرز تعبيرات هذه الطاعة من خلال الانقياد والالتزام بإرشادات وتوجيهات وإفتاءات القائد الديني دون أن يترتب في الخروج عنها أي جزاء مادي أو دنيوي كما في القيادة الرسمية وإنما الجزاء هو جزاء أخروي يعود إلى إحساس المؤمن بالذنب وبعواقب الأمور في عالم الآخرة بحسب إتساع دائرة المخالفة والخروج عن جادة الصواب الديني، أو عن جادة الفهم الذي يقدمه القائد الديني بوصفه منتمياً لإحدى طوائف هذا الدين والتي تتمايز عن غيرها من الطوائف.

وكلما كان ثمة مشاكلة في الانتماء بين القائد والأتباع، كلما اشتدت علاقة الإمرة والسلطة وتوثقت، وكلما اتسعت دائرة الابتعاد عنها وهنت وضعفت.

الفصل الثاني

القيادة ومحددات الاستنهاض

١- الرمزية الدينية للقيادة

أ- دور الرموز

تلعب الرموز بشكل عام دوراً في إحداث التعاضد والتضامن بين أفراد الجماعة وشد بعضها إلى بعض. ولكن قبل كل ذلك، ينبغي القول، أن ثمة طريقة أكثر بساطة في تعريف الرمز أنه «**شيء ما يحل مكان شيء آخر ويستدعيه**». إن تمثالاً معيناً يذكّر رمزياً بشخصية أو حدث أو فكرة، ويضمن لها بذلك وجوداً وفعلاً مستمرين. إن أي كلمة تحل رمزياً محل شيء، تثير ذكراه دون أن يكون الشيء المادي ضرورياً[(١)]. وللرمزية أهمية بالغة في حياة المجتمعات البشرية سواء كانت تقليدية أم حديثة.

وتنبع أهمية الرمزية من وظيفتها في المشاركة والاتصال بين

(١) غي روشيه، مدخل إلى علم الاجتماع، ج١، تعريب مصطفى دندشلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ١٠٧.

الجماعات ومن تأثيرها في الحياة الاجتماعية، ومن كونها تفيد بصورة أساسية في تجسيد الحقائق المجردة، العقلية أو الأخلاقية في المجتمع، وتجعلها مرئية وملموسة.

فالجماعات هي كيانات مجرّدة تحتاج إلى رموز لتذكيرها، إلى الأعضاء الذين هم جزء منها، أو لتمييزها عن الرموز الأخرى، أو لتثبيت وجودها بنظر الآخرين. هذه هي حالة الجماعات القومية أو الإثنية التي تتمثل لنا برموز متنوعة: علم، شعار الشرف والنسب، نشيد وطني، لون مميز، رجل دولة، رئيس الدولة، الملك، رئيس الجمهورية... مؤسسة سياسية، التاج البريطاني، الأسد البريطاني، القندس الكندي الخ... إن هذه الرموز لا تساعد فقط على تقديم الجماعات وتمثيلها بصورة حسية، وإنما يمكن كذلك أن تستخدم من أجل أن تثير أو تنمي شعور الانتماء عند الأعضاء وتضامنهم. هذا ما يسعى إليه ويثيره مثلاً إنشاد النشيد الوطني من قبل حشد من الناس، أو جولة من جولات رئيس الدولة في الظروف المؤاتية، أو كاريكاتير مظهراً الشخصية النموذجية وهي تجابه مشاكل الجماعة أو رفع العلم أو القسم به، حتى أن احترامه يصل أحياناً إلى حد القداسة الأسطورية التي ينشأ عليها الشاب الأميركي ويكبر، وكيف يتعلم احترام الشارات والرموز التي تحيط به[١].

الرمزية الدينية تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان لما لها من أدوار

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٥.

تصـل الإنسان بعالم السماء، وتحـدد العلاقات التضامنية بين الأفراد، ولكونها تنطلق إلى رسم الغايات المفترضة في نظام العلاقات الاجتماعية وخصوصاً بين جماعة المؤمنين، والتي تظهر تعبيراتها في ميادين شتى كالاحتفالات والطقوس، واللباس، التي تطبع الانتماءات، وتبرز خلالها الحالـة التضامنية بالمعنى الصوفي مع رجـال الدين بوصفهم عناصر مكونة للرمزية الدينية.

ب- المكانة الدينية

بطبيعة الحال فإن مقاربة شخصية السيد حسن نصر الله، تعين على الفهـم لما لشخصـه وللدور والوظيفة التي يضطلـع بها كرجل دين ولما للرأسمـال الديني من دور في عملية الجذب وشـد الأفراد إليه وتكريس موقعه القيادي.

ممـا لا شك فيه أن المكانـة لا تحدد الدور فحسـب، وإنما تحمل في طياتها سلطة رمزية هي سلطة الكلام التوجيهي والإرشادي فيما يتصل بحاجـة الإنسـان إلـى الإرشاد فـي معرفة وتأديـة فروضـه الدينية، إذ يكفي أن يدلي رجـل الدين بإفتاءاته حول بعض الأمور حتى يلجأ الفرد، - بحسـب طبيعـة ودرجة الالتـزام الديني لديه - إلـى تطبيق ما تناهى إلى سمعـه ووعيه، تطبيقاً لا يحوجه بعد ذاك إلـى الشعور بانتقاص في التزاماته الدينية على النحو الفردي.

فلكـون الدين يشكل أحـد أهم ركائز القيم في النمـوذج الثقافي في

المجتمعات العربية والإسلامية، يجعل لرجل الدين وظيفة رمزية في حياة الأفراد، الذين غالباً ما يظهرون له الود والاحترام، فضلاً عما يرسمون حوله من متخيل ذهني يتصل بشخصيته والتوقعات حولها على غرار دماثة الخلق، والتحلي بالإيمان والصبر والدعة، والزهد... الخ. وتزداد حالة الاحترام وإظهار الطاعة كلما تميز رجل الدين في علمه الديني وتبصره في عالم الاستنباط الفقهي، وفي عالم التفسير والتأويل للكتاب الديني وللتراث. غير أن ممارسة الدور انطلاقاً من المكانة لا يفترض جدلاً تحول رجل الدين إلى رجل قيادي على النحو الميداني، أو أن تسري علاقته القيادية على عموم المؤمنين بالدين، لاسيما اذا اقتصر دوره على النطاق الروحي دون الولوج إلى الاجتماع السياسي والتصدي لما يعصف به المجتمع من مشكلات، فضلاً عن جانب آخر يحدد المتحلقين حوله انطلاقاً من مساحة التشارك في حالة التمذهب الناشئة تاريخياً بين المسلمين والتي تحدد الأتباع بوصفهم منتمين إلى مذهب من المذاهب. فمساحة التشارك في الانتماء تشكل أحد العناصر الجاذبة بين الأفراد ورموزهم الدينية دون أن يعني ذلك بروز التنافر مع المختلف في إطار الدين الواحد.

لهذا السبب فإن المكانة الدينية للسيد نصر الله تفترض وفق هذه الحال أن تشتد وجهة التماهي معه كقائد كلما اتجه مسار ممارسة الدور القيادي من العام إلى الخاص.

ذلك أن الخاص محكوم دوماً بالتماهي المشترك بين القائد

والمحازبين لتمثلهم أهدافاً مشتركة ينزعون نحو تحقيقها، فضلاً عن الآلية التنظيمية التي تحدد قواعد الطاعة وإظهار الولاء. وبذلك تبرز حالة التماهي في مراتبها القصوى، ثم تميل نحو الانحدار النسبي كلما اتسعت دائرة امتداد الفعل القيادي، أي على مستوى الطائفة والوطن والأمة.

ففيما يتصل بالطائفة الشيعية، لناحية تموقع القيادة الدينية فيها، فثمة تراتبيات في المكانة تقتضي تمايزاً في الأدوار بما يتوافق مع المكانة، حيث يقف على رأسها المرجع الديني ثم يليه العلماء الآخرون. فالطاعة في موقع الإفتاء معقودة اللواء للمراجع الدينية، والسيد نصر الله لم يدع أنه بلغ مكانة المرجع الديني القادر على الاستنباط والإفتاء وإنما هو أحد وكلاء المرجع الديني آية الله العظمى السيد علي خامنئي، ما يعني أن المكانة والدور ستحددان تبعاً لحالة التموقع في المراتبية الدينية، وهي ليست على أي حال صنو مكانة ودور المرجع الديني لدى الطائفة، حتى ولو كانت مضاهية لها في مزايا عدّة يفترض بالمرجع التحلي بها، كالورع، والعدالة، وحسن السيرة...الخ. لكنها لا تضاهيها في غزارة العلم والقدرة على استنباط الفتوى والاجتهاد بأحكام الدين.

أما من الناحية التنظيمية، فخصوصية الطائفة الشيعية في لبنان محكومة في البناء التنظيمي بثنائية حزبية راهنة يشكل حزب الله أحد طرفيها، ما يعني أن التماهي في الانتماء والولاء من الناحية التنظيمية يفترض التواءم مع هذه الثنائية.

أمـا في النطاق الإسلامـي العام، فالسـاحـة الإسلامية مفتوحة على توزع مرجعيات فقهية، وتشكيلات حزبية إسلامية متنوعة، وهي تفترض بحسـب هذه الحال تماهيات مع أطر قيادية تتنـوع بحسب تنوع الانتماء سواء في نطاق التمذهب أو في نطاق الانتظام التشكلي لإحدى التنظيمات الإسلامية.

لذلك فإن السعي إلى فهم الدور القيادي العام الذي اضطلع به السيد نصـر الله لا يحيـل إلى المكانـة الدينية، أو هو غير منـوط بها وحدها، وإن كانـت تشكل إحدى العوامل الهامة في هـذا المضمار. ذلك أن هذه المكانـة وإن كانت تنفتح على الاختلاف والتنـوع، فإنها أيضاً تفتح على الاحترام بمعزل عن الطاعة التي سوف تبرز في مراتب متدرجة منحكمة إلـى خصوصيات المسلميـن في ممارسة التزاماتهـم الدينية، وبحسب اتجاهاتهم الفقهية والتنظيمية. لذلك فإن عمومية الدور القيادي ليست نابعـة من الموقع الفقهـي أو التنظيمي للسيد نصـر الله بل يتغذى هذا الـدور من الـدور الاجتماعـي والسياسي غيـر المنفصل عـن أطروحة الدين نفسـه، والذي يستوجب التصدي للقضايـا المطروحة التي يرزح تحت وطأتها العالم والشعوب الإسلامية على وجه الخصوص، والتي هي ليسـت محل خلاف بين المسلمين، بمعزل عن تصورات تحققها وآليات رفعها عن كاهل الأمة.

وعلى هذا النحو، فـإن الدور القيادي للسيد نصر الله ليس مطروحاً علـى أنه يمثل زعامـة دينية عامة، وإنما هي زعامـة قيادية انطلقت من

الفهـم الديني إلى الميـدان العام في الأمة، وصقلها فـي إطار القضايا العامة للمسلمين. فهذا الدور القيادي، هو دور استنهاضي عام، لا يدعو إلى النهوض فحسب، وإنما يحدد الآليات ويرسم النموذج، وينير الطريق أمـام تحققه وهو نموذج المقاومة من أجل تحرير الأرض واستعادة عزة وكرامة الأمة.

٢- القيم ومحددات الاستنهاض

أ-المقاومة ومنظومة القيم

تلعب الرمزيـة الدينية للقائد والمرحلة التاريخية التي يبرز خلالها، دوراً فـي تحديـد معالم الكاريزمـا وإبرازها إلى واجهـة الأحداث. غير أنها تبقى قاصرة عن الإحاطة بها مع إسقاط عوامل أخرى تشكل رافداً أساسياً في تجسدات هذا الدور، وهي العوامل التي تتصل بطبيعة الفعل المقاوم نفسه في تفصله مع القيم والمعايير السائدة. ذلك أنه وبحسب ماكس فيبـر، فإن الفكر البشري هو الذي يعطـي معنى للظاهرة بفضل العلاقـة بالقيم. كما أنه هو الذي يحدد في الوقت ذاته الأهمية المعطاة لبعض الظواهر، وانه عندما نعتبر أن نتائج الأحداث التاريخية هي نتائج مهمة يكون اعتبارنا على أساس العلاقة بقيمنا الثقافية.(١)

فالقيمة وفق بعضـ التعريفات، هي طريقة في الوجود أو في السلوك يعتـرف بهـا شخص أو جماعة مثـالاً يحتذى، وتجعل هـذه الطريقة من

(١) د. علي سالم، منهجيات في علم الاجتماع المعاصر، ممصدر سابق، ص ١١٢.

التصرفات أو من الأفراد الذين تنسب إليهم، أمراً مرغوباً فيه أو شأناً مقدراً خير تقدير[1]. إنها شيء يحظى بالتقدير والرغبة وهي تعبير عن الدوافع أو الحالة التي تشبه دافعاً.

سنسعى وفق هذه التعريفات إلى تبيان الأهمية المعطاة لظاهرة المقاربة كحدث تاريخي انطلاقاً من القيم السائدة على أن المقاومة بحد ذاتها تشكل تعبيراً شديد الإرتباط بفئات من القيم الدينية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، والتي تجسد بنماذج من الشجاعة، وإغاثة الملهوف، والإخلاص والحرية والعدالة.

وهي نماذج ترتبط بالنزوع الإنساني العام كالحرية والعدالة وبعضها مرتبط بالطبيعة الاجتماعية المتوارثة لدى الشعوب العربية والإسلامية على غرار الشجاعة والنجدة والكرم.

وهي لتضمنها نماذج فعل تعود إلى فئات متنوعة من القيم تغدو أكثر أهمية مما لو تضمنت نموذج فعل يعود إلى فئة واحدة من فئات القيم، إذ ثمة تراتبية في القيم لدى الشعوب التي تسعى إلى تفضيل بعضها في أولويات ومراتب متدرجة من ناحية الأهمية. فبعضها من طبيعة روحية وبعضها الآخر من طبيعة اجتماعية أو مادية أو فكرية لكنها ليست على درجة واحدة من التراتب. فالقيم الجمالية إذا اصطدمت بالقيم الأخلاقية والدينية في بعض جوانبها تتقدم القيم الدينية والأخلاقية

(١) غي روشيه، مدخل إلى علم الاجتماع، مصدر سابق، ص ٨٨.

عليها، وكذلك الحال في القيم المادية في الكسب والمعاش والإنتاجية وغيرها.

وعلى هذا النحو، يغدو فعل المقاومة منطوياً أو متضمناً في نموذج يعود إلى أكثر من فئة من القيم المتواكبة في آن معاً، وبما لا يحوج إلى الاصطدام بمعايير تفاضلية بين الديني والأخلاقي والاجتماعي والإنساني، الأمر الذي يؤدي إلى اتساع وظائفها لدى الجماعات ولدى الأمة كوظيفتها في الإحساس بالانتماء، والتشارك في شدّ عرى الوشائجية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتوفير الشحنات والإنفعالات التي تجعلها ملهمة للأحكام ولإظهار الولاء والطاعة.

على هذه الحال، فالقيم كمرجعية للأحكام، وكمثال يحتذى وغايات قصوى يطمح إليها أصحابها، يصبح معها الفعل المقاوم معياراً وتجسيداً واقعياً للجانب المعنوي الذي تشكله القيم. فالمعايير هي تجسدات واقعية في حين أن القيم هي مرجعية معنوية. فإكرام الضيف، ومساعدة الضعيف، وإغاثة الملهوف هي تجسدات عملية لقيمة اجتماعية هي الكرم وليست هي الكرم بحد ذاته. ومن هنا تأتي النماذج التي تقدمها المقاومة على أنها فعل سلوكي في الشجاعة والصبر والتحمل ورفع الظلم ومساعدة المظلوم وفي الإقدام والجرأة، ونيل العزة والكرامة والحرية، يحاكي القيم ويتوازن معها، وبذلك تصبح المقاومة النموذج المحدد للسلوك الرمزي والمرجعي في مجاراته لمنظومة القيم في النظام الاجتماعي السائد.

كذلك يرتبط الفعل المقاوم في أحد جوانبه بمجاراته لقيمة إنسانية عاليـة هي قيمة الإيثار، وهي قيمة رغـم ارتدائها الطابع الإنساني العام إلا إنهـا تحظى بخصوصية بـارزة في المجتمعات العربيـة والإسلامية لارتباطهـا بالواقع الاجتماعـي والتاريخي من جهـة، وارتباطها بالدين مـن جهة أخرى. ولذلك فالإيثـار يستند في هذه المجتمعات على أساس اجتماعي وديني.

ولتبيـان هذه الخصوصية، نجد أن المجتمعات التقليدية وبمعزل عن الدين، مارست هذا النوع في محاكاة هذه القيمة. ففي مجتمعات الصيد البدائيـة، وكذلك المجتمعات الزراعية حيـث الندرة في الرزق وأسباب العيش أدت إلى وجود الحالة التضامنية والتعاضدية بين الأفراد.

ففـي هـذه المجتمعات تسـود، من ناحيـة القرابة، العائلـة المركبة والموسعـة وتجمعـات القبيلة والقـرى التي يعرف فيهـا الأفراد بعضهم بعضاً وتشتـد فيها الأعراف والتقاليد بينما تضعـف القوانين المكتوبة، وفيهـا يؤثر الفرد أفراد عائلتـه أو قبيلته أو أبنـاء القرية على نفسه في حالات العوز والشدّة وندرة الرزق. هي مجتمعات تكاملية وتضامنية حيث يعمل جميـع الأبناء معاً ويعمـل الفرد للجميع. ولكنها تقـوم على الإيثار حيـن يعطي الفرد في بعض الأحيان أكثر مما يأخذ، إذ قد يتكافل أفراد أسرة ما في العمل الزراعي ولكن الإنتاج حين يكون غير وفير تمتد إليهم يد أخـرى للمساعدة في إطار من التبادلية حيـث يمكن أن تكون العائلة الموفـورة الإنتـاج في زمن ما، محتاجة إلى يد العـون. فالتبادل هو احد

الأسباب التي تؤدي إلى رسوخ العرف والقيمة في تلك المجتمعات التي لم تسيطر بعد على الطبيعة. في المجتمعات الغربية الحديثة حيث تغدو مؤسسات الدولة كبديل تضامني عن الأفراد ليس ثمة حاجة إلى امتداح الفعل الذي يحاكي قيمة الإيثار.

لقد حلت الأسرة النواتية التي تقوم على الزوج والزوجة والأولاد أو بدونهما محل العائلة الموسعة، وغدا المجتمع أفراداً في مواجهة بعضهم بعضاً في التحصيل والكسب. في عالم الربح والمال، ثمة عقل عملي يتحكم بالأشياء، إذ ليس ثمة منطق في أن أعطي المال الذي أكسبه بالتعب لفرد عاجز لا يقوم هو بهذا العمل الذي ينبغي له أن يقوم به ولو لم يوفق إليه، أو حتى في أبسط الحال ثمة مؤسسات تقوم بدور رعائي للعاطلين عن العمل تمول من الضرائب المفروضة. وليس ثمة منطق في مساعدة الآباء لأبنائهم الذين يؤثرونهم على أنفسهم وهم أطفال، ولكن بعد بلوغ السن القانونية عليهم بتدبر أنفسهم. وليس على الأبناء مساعدة الآباء العاجزين طالما هناك مؤسسات رعائية تحتضنهم حتى مماتهم . وليس من العقل أن أكون مضيافاً أقدم نقودي في منزلي أو في المطعم أثناء دعوة لأصدقائي ومن جمعتني بهم الصدفة. لقد حل العقل وحساب الربح والخسارة والمنفعة في تفاصيل الحياة اليومية ما أدى إلى ضمور قيمة الإيثار من الناحية الموضوعية لكونها تخالف المنطق. مع ذلك، نجد أن الكثير من الأعمال التي تحاكي هذه القيمة، مقترنة بأصحاب الشهرة وعالم النجوم الكبار أثناء الإفصاح عن برامجهم

في مساعدة الأطفال المرضى، كمرض السيدا والسرطان وغيرهما بعدما تعب هؤلاء في الجني والربح وعالم الشهرة، إذ ليس من نشاط يحوجهم إلى الشعور بإنسانيتهم أكثر من ذلك التعاطف الإنساني مع العاجزين والمعوزين وذوي الحاجات الخاصة. وهو عالم منفصل عن القيم الدينية المسيحية في المحبة والإيثار والتي غدت أسيرة أقوال الرهبان والقديسين في كنائسهم وأعمال القديسة تريزا في حسّها الإنساني الرائع.

أما في المجتمعات العربية والإسلامية، فإن قيمة الإيثار ما تزال تختزن معاني محمَّلة بالكثير من موارد القبول والاستحسان، لكونها قيمة متناسلة في تاريخ هذه المجتمعات وواقعها المعاش غير المنفصل عن ماضيها. ذلك أن المضي في مشروعها الحداثي لا يقوم على أساس القطيعة مع الماضي كما في البلدان الأوروبية. فالبنية الاجتماعية العربية والإسلامية ما تزال تحافظ على تماسك نموذجها القائم على القرابة وعلى الوظيفة الوشائجية والتضامنية للعائلة الموسعة. كما أن هذه المجتمعات وإن دخلت مرحلة التصنيع، ولكنها لم تستطع تحويل الأفراد إلى ذوات فردية منفصلة. فالعائلة ما زالت تشكل وحدة اجتماعية اقتصادية، كما تتصل اتصالاً وثيقاً بالمؤسسة الدينية[1] وبالقيم الدينية، ومنها التي تحث على الإيثار بين ذوي القربي والأرحام

(١) حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩٨، ص ٢١٩.

في مد يد العون والمساعدة ولو على حساب الذات، بل والاهتمام بالجماعة وبأمور المسلمين والمستضعفين. وهي تعاليم تضطلع بأدوار شتى بينها توطيد عرى اللحمة والوشائجية لدى الجماعة، والدعوة نحو التسامي بالفرد نحو الكمال الإنساني الذي يتجرد عن الذات فضلاً عن ارتباطها بالعود والنفع الأخروي.

وبذلك يحمل الفعل المقاوم بعداً قيمياً يتجسد بقيمة الإيثار حيث لا يعود هذا الفعل على من يقوم بالعمل نفسه، وإنما يعود بالفائدة على الجماعة لبنانية كانت أو فلسطينية أو عموم المسلمين، لكون معضلة الصراع مع إسرائيل تبقى إشكالية مطروحة على الوعي الإسلامي ينبغي العمل لرفعها ومعالجتها. ولما كان من غير المتيسر لجميع المسلمين الانضواء في العمل المقاوم بسبب الظروف الموضوعية المحيطة بالفرد، كان من الطبيعي أن يختزن هذا العمل بعداً عميقاً في محاكاة قيمة الإيثار ليس في مجال تحمل الجهد والعناء والمصاعب الذي يستوجبها، والذي يخرج عن التضحية بهذا الجهد والعناء إلى حد التضحية بالمال والنفس وهو ما لا يتحمله عموم الأفراد، إذ لا يمكن بحسب المصلحة الشخصية، وبحسب عامل الخوف والإحساس بالضعف، ونزعة الخلود الفطرية أن يقدم الفرد على التضحية بنفسه من أجل الجماعة أو الأمة التي ينتمي إليها.

فالاستشهاد والتضحية عمل ممدوح لا بحسب ما يحمله لدى أفراد الأمة من قيم دينية وحسب، وإنما الفرادة والتميز اللذين يجب التحلي

بهما للاقدام على هذا العمل، سيما أن المقاوم ليس جندياً في مؤسسة عسكرية لكي يدفع نحو القتال على النحو الإكراهي، وإلا فسوف يخضع للمساءلة القانونية والجزائية.

مع ذلك، فإن الجندي حين يقدم نفسه في المعركة يحاط بالكثير من إسقاط عوامل الاحترام المتمثلة بالطقوس الرمزية لرفاقه في السلاح، من معزوفة نشيد الموت، إلى المقابر الخاصة التي تخلد ذكرى الشهداء بوصفهم أبطالاً آثروا شعبهم وأمتهم على أنفسهم، فكيف الحال حين يكون الفعل المقاوم عملاً يرتكز على الاختيار والمبادرة الفردية للانسان الفرد نفسه؟

فالشجاعة والإيثار والتضحية تنتمي إلى فئة القيم السائدة في المجتمع العربي والإسلامي، وهي مستمدة من تواصلها مع الجانب التاريخي لهذه المجتمعات في تحولها من مجتمع القبيلة إلى الدولة في العصور الإسلامية، ومن جملة التحديات التي واجهتها فيما بعد إزاء عهود الاستعمار ومقاومة المشروع الصهيوني. وهي لا تزال قيمة سائدة إزاء استمرار التحدي الصهيوني للاجتماع الأهلي والمدني بمقابل بدائل أخرى تقوم على أساس المفاوضة لاسترجاع الحقوق وهي مطروحة اليوم من قبل القادة العرب.

أما الفعل المقاوم، فهو يشكل أحد النماذج السلوكية المعيارية لكونه فعلاً يحاكي هذه القيمة ويرمز إليها، وهو يشكل في أحد أبعاده فعلاً يقوم على القوة، ولكن دون أن تكون القوة وحدها تمثل الشجاعة بعينها.

فقـد تستخدم أسباب القوة في عصر التصنيـع والتكنولوجيا وتستخدم علـى أنها فعـل يقوم على القـوة دون الحاجة إلى عامـل الشجاعة. ففي عالـم استخدام السيـف والمبـارزة، أو المواجهة الحاليـة في الحروب حيـث يشتبك فيها الجنود، فـإن الشجاعة تبقى مطلوبـة على أية حال، حيث تقترن الشجاعة بالقوة وترفدها.

في حين أن الشجاعة تفتقد إلى القيمة المطلوبة لدى الجندي الذي يقود دبابة أو طائرة مزودة بأحدث ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة، فهو لا يتعامل مع أفراد وجهاً لوجه بقدر ما يتعامل مع أهداف ليس بينه وبينها حالة تفاعلية يمكن أن تُختبر فيها قدرته على الصمود في الميدان، إذ يكفي أن يدخل الهدف دائرة التحديد المبرمجة حتى يصبح الهدف في عداد لائحة الإلغاء الوجودي بعدما يقضي عليه صاروخ نازل من أعالي السماء أو قادم من أقاصي الأرض.

وهكـذا نجد أنـه كلما ازداد تطـور التكنولوجيا الرقميـة، كلما مالت قيمة الشجاعة نحو التضاؤل، وتضاءل معها الإحساس الإنساني بالخوف والحذر اللذين يتسوجبان استحضار الصبر والعزم والإقدام للثبات في المعركة، قبل وقوعها وأثناءها وبعدها.

في حين أن قيمة الشجاعة جراء التصدي للمشروع الصهيوني تبقى مطلوبة في ظل غياب التوازن التكنولوجي.

ولذلك تنظر هذه الشعوب إلى العمل المقاوم في لبنان على أنه نموذج سلوكي يحاكي قيمة الشجاعة.

فهو يقوم على استخدام القوة ولكنه لا بد له من الاقتران بالشجاعة، لكونه يقوم أساساً على الاشتباك مع العدو في مواقعه الحصينة والمجهزة بوسائل الرصد والإنذار والعتاد، في اندفاعة يقوم بها المقاومون نحو هذه المواقع حيث تتداخل فيها كل المؤثرات التي يمكن أن تنال من المشاعر الانفعالية للانسان كأصوات القذائف، وألسنة اللهب وغبار المعركة وأنين الجرحى، ومشاهد القتل، خلافاً لقائدة الطائرة الحربية غير المتصل بشكل مباشر بالهدف إلا فيما يراه على الشاشة المحددة لأهدافه أمامه.

فالميدان إذاً هو ميدان صبر وأناة وإقدام، وهو يستوجب بلا شك، رجالات يحملون هذه المواصفات. وهو ما يجعلهم ذوي خصوصية يُنظر إليها على أنها محل احترام وتقدير. ذلك أنه ليس بمستطاع كل إنسان التحلي بمثلها، إذ شتان ما بين قيمة الشجاعة ذات الفعل الذي يحاكي هذه القيمة وبين الشجاعة نفسها. فكم من الأفراد ينظرون إلى الرجل الكريم والمعطاء نظرة تقدير واحترام ولكنهم لا يقومون بالفعل نفسه، علماً أن الكرم هو قيمة اجتماعية مطلوبة، وقد يتعارض الأمر مع مصلحتهم في الإنفاق أو في عدم امتلاك المال أصلاً أو بسبب ظروف موضوعية تحول دون هذا الأمر مع ذلك يبقى فعل الكرم ممدوحاً من قبل الكثيرين. كذلك الأمر في الفعل المقاوم. قد يتعارض الموقف مع مصلحة الفرد في عدم تعريض حياته للخطر والأذية، أو ثمة ظروف موضوعية تحول دون مشاركته في هذا الفعل، كتعرضه للمنع أو الملاحقة

من قبل نظامه أو أنه في الأصل لا يحترف عمل القوة جرّاء نقص في التدريب مع أنه يمتلك القابلية للعمل الشجاع.

على هذا النحو يبقى الفعل المقاوم عملاً معيارياً لقيمة الإيثار والشجاعة والتضحية وهي منظومة قيم لا تزال تنظر إليها الشعوب العربية الإسلامية نظرة قيمية انطلاقاً من تاريخها وواقعها.

ووفق هذه التحديدات يبرز الدور القيادي الكاريزمي للسيد نصر الله بوصفه قائداً لحركة تختزن وتحاكي هذه المنظومة من القيم والمعايير لدى الأمة جاعلة منه مثالاً يحتذى في تقديم الطاعة والاحترام.

على أنه ينبغي التنبه للمراتبية بين الطاعة والاحترام في العلاقة الجدلية بين القائد الكاريزمي والأتباع أو المناصرين، على أنها ليست على درجة من التساوي الذي يجعل التماهي مع القائد على درجة واحدة، ولكن من دون أن يفقد رمزيته الكارزمية، ذلك أن تصرف الفرد في النظام الاجتماعي يخضع للنموذج الثقافي السائد الذي يكفل الانسجام والتكافل والتوازن .

القيم هي أحد عناصر النموذج الثقافي، غير أن هذه القيم لا تمارس دوراً قسرياً على الأفراد، بل إن شخصية وسلوك الأفراد تخضع لعناصر التجاذب والتناقض بين دور الفرد ومصلحته، وتناقض المصلحة مع القيم، لا سيما وأن الفرد محكوم بحرية التصرف وتوافق التصرف مع الأهداف وهو ما يعمد إليه تالكوت بارسونز في فهم المجتمع الرأسمالي الغربي.(١)

(١) د. علي سالم، منهجيات في علم الاجتماع المعاصر، مصدر سابق، ص ٢٠٦.

قد يصح هذا الوصف الذي يسعى إليه بارسونز على المجتمع الغربي باعتبار أن القيم لا تلعب دوراً جبرياً في توجيه السلوك في تعارضها مع مصلحة الأفراد، خصوصاً في المجتمع الرأسمالي الصناعي الاستهلاكي، حيث النزوع نحو الكسب والربح والشهرة والنفوذ عندما يقف الفرد بمواجهة أفراد آخرين داخل المجتمع الواحد. ولكن في القضية المطروحة على بساط المقاربة هي تجلي دور القيم والمعايير في إطار المصلحة الجماعية وليست الفردية. فالحق والعدل قيمتان مطلوبتان على النحو الفردي والجماعي والنموذج السلوكي في الفعل المقاوم يتجلى بجانبه الجماعي حيث لا يطرح النموذج السلوكي في محاكاتهما في إطار المغالبة الفردية مع الحاكم وإنما بين أمة وأمة أخرى، أمة تؤمن بالوصول إلى مطلب الحق في استعادة الأرض. فمطلب الحق سابق على استعمال القوة الذي يغدو سلوكاً عادلاً في استعادة الحق ونموذجاً يتجلى في خطاب القائد الكاريزمي بعدما غاب عن سلوك القادة العرب ومن دون أن يفلح النموذج المستبدل في استعادة الحق على أساس الاستسلام في استبدال المعايير في النظر إلى المصلحة الجماعية للأمة.

لكن ثمة إشكالية تدور حول جدلية العلاقة بين القائد والأفراد والأمة، على أنه إذا كان المقاومون في دورهم المتماهي مع القائد هم الذين يقدمون النماذج السلوكية التي تحاكي القيم، فلماذا تقدّم حالة الاحترام على أنها متمايزة بين القائد والمقاومين، ذلك أن الفعل المقاوم لهؤلاء

يحظـى بكل التقدير والاحترام وينسحـب عليهم كأفراد ولكن لم يصبح هؤلاء على نفس الدرجة من الكاريزما بنظر أفراد الأمة؟

وقـد يفهـم هـذا الأمـر فـي حـال التماهـي بيـن القائـد وأتباعـه الإيديولوجييـن أو المحازبيـن أو مـن يشاركونه في الانتمـاء والأهداف بشـكلٍ مباشر، ويجمعهم معه تاريخ مشتـرك من العمل الدؤوب والجهد المريـر في سبيـل تحقيق الأهداف، وكونه يشكل رأسـ الهرم التنظيمي الذي يفترضـ تقديم الولاء والطاعة، فضلاً عـن دوره في رسم الآليات السلوكية المحاكيـة للقيم وخاصة قيم الجماعة المتشاركة معه في بيئة ثقافيـة خاصة، إلى جانب أسباب أخرى سوف تكشف عنها المقاربة في سطور لاحقة.

أما التماهي العام الذي يبرز لدى أفراد الأمة للقائد نفسه أي السيد حسن نصر الله، فقد يدور الاعتقاد بأن البيئة الثقافية في العالم العربي الإسلامي التي تميل بطبعها نحو إظهار الاحترام للقائد البطل أو الرجل التاريخـي ولكونها بيئة بطركية تظهر فيها السلطة الأبوية المنحكمة إلى قيمها الخاصة فـي تقديم الطاعة الوالدية، فهـو الراعي وهو المخلص والمستبـد الذي يعرف مصلحة أبنائه أكثر مما يعرفون هم مصلحتهم، ولكـن الأمر يغدو غير ذلك حين الولوج إلى التجربة الذاتية للسيد نصر الله والتي تحمل أبعاداً متشاكلة ومتمايزة في آن معاً.

فحالـة التشـاكل هي في حالـة التماهي بيـن الدور القيـادي والدور المقـاوم نفسـه الذي يجسد سلـوكات ونماذج عملية فـي محاكاة القيم

والتــي تتجسد عملياً فــي ميادين شتى من كونه تدرَّج في العمل الجهادي قبل وصوله إلى سدّة القيادة، وهي من الموجبات الخاصة بعمل المقاومة الإسلامية في لبنان، وهو ليس موضع شك لدى المنضوين في المقاومة، وقد أتاحت الميديا الإعلامية تقديمه العفوي على شاشة تلفزيون المنار فــي أحد الخطوط القتالية مرتدياً زيــه العسكري وحاملاً بندقيته ويبدو على ملامحه العمل المضني كسائر أقرانه دون أن تغادره ابتسامة تفصح عن حالة الارتياح لوجوده بين المقاومين. وقد استمر هذا التجسيد بعد تبوئــه ســدّة القيادة ولكــن بما ينسجم مــع الدور الــذي يقتضيه الموقع القيــادي مــن مشاركة فــي التخطيط ورســم الاستراتيجيــات والتوجيه والإشراف، ولكن من دون أن يلغي الاستمرار في تجسيد الفعل المقاوم. وقد برز هــذا النموذج السلوكي عبر أثير الفضائيــات إبان عدوان تموز ٢٠٠٦ في المتابعة الميدانية للعمليات الدائرة على خطوط القتال وبينها أمــر العملية القتالية التي استهدفت بارجة إسرائيلية عملاقة في عرض البحــر، وكذلك في بروزه في احتفال النصر في شهر أيلول معلناً تحدي العدو الإسرائيلي الذي دأب على إعلان استهدافه بعدما اعتلى المنصة وســط هدير الطائرات الحربية التي لــم تغادر سماء الضاحية الجنوبية آنذاك.

ورغم أن مــن مقتضيات فعل المقاومة والقيادة على وجه الخصوص التــزام جانب الحذر وعدم تقديم الفــرد أو القائد لقمة سائغة للعدو ما يمكنــه من إحــراز النصر، فقد أتاح بروز القائد أمــام الأمة على الأثير

وهـو يعلن استعـداده للاستشهاد على أنـه صنو المقاوميـن في دورهم الاستشهادي، وقائد لا يقيم فـي قصره مخلداً إلى الدعة والراحة وعلى غرار رؤساء الأمم.

ب- الذاكرة الجمعية

الذاكـرة الجمعيـة هـي عامـل من عوامـل الانشـداد نحـو القيادة، وبالتالـي نحو الفعل المقاوم. أهمية الذاكرة الجمعية أنها تختزن الكثير من ذكريـات الماضي ووقائـع التاريخ في حياة الشعـوب، ولكنها ليست أحداثـاً جامدة كمدونـات التاريخ وإنما تبقى حية فـي الوجدان والعقل، يستدعيانهـا فـي المهمات وفـي الأحـداث المفصلية للاستضـاءة بها والاسترشاد بهديها فضلاً عن كونها إحدى أساسيات التضامن واللحمة والوشائجيـة بين الجماعات أو الشعوب كمـا تزخر به أحداثها ورموزها وشخصياتهـا من معانٍ مثقلة بالكثير من الانجازات والدلالات التي تعبر عـن القدرة على معالجة إشكالات الواقع من رجالات رسمت حولها هالة كبيرة من القداسة والشرف والرفعة والحكمة من قبل المؤمنين بها.

غيـر أن عملية الاستحضار مـن الذاكرة الجمعيـة ليست على درجة واحدة حيث تتراوح بين الضعف والشدة. فتارة يقتصر هذا الاستحضار علـى الإحساس بالشعور النفسـي الذي يمنـح الطمأنينة حيـن العودة إليها تحت وطأة الأحـداث المثقلة بإرباكات الواقع، بعدما يسود التذمر والضجـر وانعـدام أفق الحلـول الممكنة. والقضيـة الصراعية أدت بلا

شـك إلى حـال التذمر لـدى الشعـوب العربيـة والإسلامية ثـم لينفتح هـذا الاستحضـار على عقد المقارنـات بين مثالية الماضـي وإشكالات الحاضر وتصـورات المستقبل. وقد تلجأ بعض الجماعات إلى عقد لواء من المصالحة بين الذاكـرة الجمعية والحاضر عن طريق عقلنة الواقع بإسنـاده إلى مجموعة من التبريرات التي تبيح القبض على زمام الأمور فـي إطار الظروف والشروط الموضوعيـة، دون إلغاء هذه الذاكرة وإنما تستبقيها أسيرة وجودها التاريخي. وتلك هي حال النظم السياسية التي تعيش حال الانكفاء والضعف والخضوع وحال انعدام التوازن. تلك الحالة ليست سهلة المنال إنما تحتاج إلى الكثير من الجهد والإقناع واستخدام أجهـزة السلطة في إحداث ونقـل تبريرات الواقع إلـى الوعي الجماعي دون المسـاس بالذاكرة الجمعية للشعـوب، بل يجري التمسك والاعتداد بهـا وتأكيد الانتماء إليهـا، طالما بقيت ترزح في دائـرة التاريخ لانتفاء الظـروف الموضوعية التي تعين على استحضارهـا إلى عالم الواقع، أو يجري الأمر من خلال إخضاعها لمجموعة من التأويلات وجعلها منفتحة على تعدد الأفهام والرؤى حولها لناحية حملها على الواقع.

في حين أن إحدى درجات هذا الاستحضار تبلغ درجة من الشدّة في تأكيـد الذاكرة الجمعية، فيجري استدعاؤها لإعـادة إنتاجها في الواقع بـكل ما يضج به من تفاصيل تتدرج في الأمـور اليومية والحياة الدنيوية والأخرويـة للجماعـات لتصل إلى قمـة الهرم السياسـي وتلك هي حال الجماعات الإسلامية التي باتت تسمى بالحركات الأصولية.

علـى هذا النحو تقـدم الشعـوب العربية والإسلامية فـي تشكيلاتها الأهليـة وانتماءاتهـا الحـزبيـة ومؤسساتهـا ونظمها السياسيـة، الكثير مـن الأمثلـة لناحية تموضع الذاكـرة الجمعية جراء مـا تعصف به هذه المجتمعـات من حالات الفقر والسيطرة والضعـف والنزوع نحو التنمية والمشاركـة. ولعل مشكلة الصـراع مع الكيان الصهيونـي هي أحد أهم عوامل هذا الاستحضار لانفتاحها على مختلف المكونات الشعبية.

ذلـك أن مخـزون الذاكرة الجمعيـة يستند إلى الكثيـر من العناصر المتوالفـة والمتراكمة علـى مدى أجيال، فهي ذاكـرة تختزن الكثير من القدرة على الحضور حيث لا تمتد إلى أحداث جرت في قرون خلت، وإنما تشكلت مـن ماضٍ قريب متصـل بالحاضر، ولأنها حيـن تشكلت حملت معها الكثيـر من الإخفاقـات المشفوعة بالمآسي والحـزن، والإحساس بالهزيمـة وبالقليل من النجاحات المحدودة في بعض مفاصل الصراع، ولكنها بقيت تنتظـر الانجاز التاريخي الكامل وهو ما قامت به المقاومة في لبنان.

ج- الفعل المقاوم بين المبادرة والمغامرة:

المبـادرة هي إحدى السمات الهامة التي لا بد للقيادة من التحلي بها لاقترانها بالتحفـز والإقدام لتحقيق الغايات، وبدونها يتحول القادة إلى قـادة رأي ومنظرين أو فلاسفـة ينشدون فهم علل الوجـود في بداهتها وعمقها ومن دون أن ينقض ذلك دورهم التغييري. فمثالاً لا حصراً لعب

مفكرو عصر الأنوار في القرن التاسع عشر دوراً في إحداث التغيير الذي شهدته القارة الأوروبية بعدما سرت أفكارهم حول الحرية والعدالة والمساواة وعلى امتداد عقود من الزمن، ووجدت لها مكاناً دافئاً في عقول المستنيرين الطامحين إلى استبدال الواقع المتردي بفعل سيادة السلطات المطلقة، وانعدام الأمن والحرية والعدالة. إن مبادرة هؤلاء المفكرين تجلت عندما انبروا إلى إعمال الفكر والنظر من اجل العبور من الواقع المتردي إلى واقع أفضل من خلال بلورة ممكنات التغيير.

وقد لا يحتاج التغيير إلى فلاسفة ومنظرين، وإنما إلى مبادرين من نوع آخر ممن تشكلت لديهم قناعات تغييرية زاوجت بينها وبين الفعل التغييري على غرار ارنستو تشي غيفارا وفيدل كاسترو وأحمد بن بلا وغيرهم من القادة التاريخيين الذين أفرد التاريخ لهم صفحات بيضاء خلدت أدوارهم وجعلت منهم مثالاً يحتذى لدى شعوبهم.

وفي المرحلة الراهنة المتصلة بالصراع مع إسرائيل يتجلى الدور القيادي للسيد حسن نصر الله باستناده إلى خيار المقاومة داعياً إلى توسلها في حسم مسألة الصراع الذي مضى عليه عقود من الزمن فيما المشروع الصهيوني يتقدم على ما عداه من مشاريع لحل هذه المعضلة.

فالدعوة إلى المقاومة هي بحد ذاتها مبادرة، جعلت من أصحابها دعاة تغييريين وقادة تتحلق حولهم الجماهير.

إنّ المبادرة تكون شديدة الحاجة والإلحاح حين يسود حال من

المأساويــة والضياع، وحين انعدام أفق الحلول، وتجمد الوعي التغييري، أو بفعل وجود الوعي التغييري كاستعداد كامن في النفوس ولكن من دون خروجــه إلى حيــز الواقع بفعل القهر والتسلــط الداخلي والخارجي على الشعوب.

وقد يصح هذا الوصف في محايثته وتزامنه مع الواقع الذي يبرز فيه الدور القيادي المقاوم للسيد نصر الله إن لناحية الإخفاقات في حروب الأنظمــة العربية فــي صراعها مع إسرائيــل أو لناحيــة الانحدارات في القضيــة الصراعية التي مالت منذ كامب ديفيــد، ثم مؤتمرات التسوية المزعومة منــذ مدريد وأوسلو، إلى تنحية مسألــة الصراع والاستعاضة عنها بمفاوضات السلام، فضلاً عن ضغط الأنظمة العربية على شعوبها المتحفزة نحــو استعادة الأرض والحقوق المشروعة بالارتكاز على خيار المقاومــة، بمقابل مبررات تستنــد إليها تلك الأنظمــة قوامها الظروف الموضوعية وانعدام حال التوازن مع القوة الأسطورية لإسرائيل ومساندة الغــرب لها وبأن الأمور بخواتيمها طالما أن تلــك الخواتيم هي استعادة الأرض.

وعلــى هــذا النحو، تصبح المبــادرة في الفعل المقــاوم مغامرة غير محسوبــة النتائج بنظر الحكام لأن منطلقاتهــا تتجافى مع منطق العقل ومقتضياته في تعيين الآليات والوسائل للوصول إلى الأهداف.

ورغم أن دحض فكــرة المبادرة برزت أولى ملامحه مع كامب ديفيد بمشاريــع التسويــة في مدريــد ووادي عربــة، إلا أن أصبحــت بعد ذاك

مغامرة في إطار الرد على الفعل الإجرائي للمقاومة في لبنان بخطف جنديين إسرائيليين من أجل مبادلتهما بأسرى لبنانيين في السجون الإسرائيلية، ولذلك دعت السيد نصر الله إلى تحمل النتائج.

ترى إذا كانت المبادرة مغامرة تقف بمواجهة عقلنة القرار السياسي وتوظيف العقل العملي والمعياري في قضية تدخل في إطار شبكة من القضايا المعقدة في الصراع مع إسرائيل، فلماذا حظي الفعل المقاوم في أحد حلقاته المتصلة بحرب تموز ٢٠٠٦ بهذا التأييد من الشعوب العربية والإسلامية دون بعض حكامها؟ تكمن الإجابة في أن هذا التأييد والالتفاف لا يحيل إلى حب المغامرة غير محسوبة النتائج لهذه الشعوب، بقدر ما يحيل إلى انفتاحها على الأبعاد الوظيفية للعقل في جوانبه النظرية والعملية في آن معاً. ذلك أن وظيفة العقل النظري التطلع الدائم نحو الحقيقة التي تحيط بعالم الإنسان وبينها حقيقة الوجود الصهيوني المعادي، فيما ترتبط الجوانب العملية بالآليات والوسائل التي منها الفعل المقاوم الذي يقف على دفتي الترجيح بين المبادرة أو الاستسلام.

وأما من ناحية قيادة المقاومة، فإن الخطاب الموازي للفعل المقاوم لم يخل يوماً من تقديم مبررات للعقل الجمعي على أن المقاومة لا تعني المغامرة وإنما تقترن بالعقل حيث نجد عناصر هذا الخطاب تقدم بإزاء أعمال العدوان اليومي لإسرائيل وأمريكا في فلسطين والعراق تجربة نجاح المقاومة في تحرير الأرض في جنوب لبنان، وعناصر أخرى تتصل

بالتخطيط في إدارة المعركة، وبأن المقاومة تمتلك كل أسباب القوة من سلاح ردعي وبنية قتالية متماسكة وهي عناصر تحمل قدراً كبيراً من الأهمية لتسويغ المبادرة. وحتى ولو كانت النتائج متواضعة بنظر بعضهم، فإن المقاومة تكون متصلة بحلقات أخرى في البناء الاستراتيجي لخوض المعركة المصيرية التي تستوجب المبادرات العربية والإسلامية بعد أن تكون المقاومة قدمت النموذج في هذا الميدان.

قد يصح هذا الفهم في اعتباره أحد عناصر التأييد والتفاف الشعوب والحكام لارتباط العقل التبريري بمصالح دوام السلطة فضلاً عن تعوده على مصادرة وظيفة العقل الجمعي لهذه الشعوب بحصره بالحاكم في عقله الأبوي الذي لا يكف عن اعتبار الأفراد أطفالاً ومراهقين قاصرين عن مصالحهم الخاصة فكيف بمصالح الشعوب؟ ومن هنا كانت ممارسة دوره الأبوي على أن المبادرين في الفعل المقاوم ليسوا سوى مغامرين لا يستوجب الأمر عودتهم إلى أحضان الأبوة على غرار الأطفال وحسب وإنما يجب أن يتحملوا تبعات أعمالهم عندما يضيق الأب ذرعاً بممارسة أبوته ليست في السلطة وإنما في مصادرة العقل حتى ولو كان هذا العقل عمومياً بالفطرة ويتوزع على عموم بني البشر.

الفصل الثالث

القيادة والخطاب المقاوم

١- مفهوم الخطاب

قبل البدء في عملية المقاربة ولفهم طبيعة الخطاب في الفعل المقاوم لا بد لنا من تحديد مفهوم الخطاب السياسي واستعمالاته دفعاً للالتباسات التي يمكن أن تحصل بسبب الاستعمالات المتعددة لهذا المفهوم.

يعدُّ الخطاب السياسي، من الناحية العمومية، منظومة فكرية تحوي الكثير من المفاهيم والدلالات النظرية التي تعين الفرد على خبرة أحد جوانب الواقع الاجتماعي، وتسعى إلى تقديم مجموعة من التصورات حول هذا الواقع أو إشكالاته المتباينة التي تم إنتاجها في إحدى الفترات التاريخية. إن تناولنا لمفهوم الخطاب السياسي لا يعني أننا سوف ننطلق من هذا المفهوم الذي أوردنا، ذلك أن مفهوم الخطاب باعتباره مصطلحاً شاملاً يحتوي على مجموعة من العناصر التي تعين على فهم مجموعة من الأشكال والإدراكات النظرية، قد لا نجده متطابقاً مع ما نسعى إليه في المقاربة.

ومـن هنا سوف تتم مقاربة هذا الخطـاب من زوايا ثلاث هي الهوية التـي تجعلنـا نقف علـى الفروقـات الأساسيـة المطروحة علـى الوعي الإيديولوجي وتبيـان موقع الخطاب المقاوم منها، ثم حقل السلطة التي يـدور حولهـا هذا الخطـاب، وصولاً إلـى وظيفته في التواصـل الداخلي والخارجي وهـي وظيفة أساسية تلعب دوراً هاماً فـي بلورة هذا الانتماء وتعضيد اللحمة من أجل الوصول إلى السلطة.

إن اختيـار هـذه الزوايا الثلاث فـي الخطاب تجد لها تبريـراً لدينا لكونها تشكل معاً العوامل التي يدور حولها التمحور والانقسام في الوعي الأيديولوجـي فـي العالم العربـي والإسلامي. وهي بحد ذاتهـا إشكالية مطروحة على الخطاب المقاوم عما إذا كان خطاباً يضيف عاملاً جديداً إلى عوامل الانقسام في الوعي الأيديولوجي، لكونه خطاباً يحمل منطلقات إسلامية، ومفتوحاً على تعدد الفهم بتعدد الحركات الإسلامية وتنوعها، ويقف بمواجهة خطاب يوصف بأنه خطاب علماني ارتكز عليه الكثير من الحركات والأحزاب القوميـة والاشتراكية التي سادت في العالم العربي والإسلامي منـذ عهود الاستعمار إلى يومنا هـذا. غير أن هذا الخطاب تميز بكونـه استطاع القفز فـوق عوامل الانقسـام، لتأسسه على عوامل استنهاضية تتأطر خلالها كل نتاجات الوعي بمختلف تنوعاتها.

مـع ذلك ينطلـق السؤال حـول كيفية تمفصلـه مع الهويـة والانتماء والسلطـة، ووظيفته في التواصل لتبيان دلالاته الاستنهاضية. إن الإجابة عمـا أوردنا يمكن الولـوج إليها من خلال الاستنـاد إلى مجمل الخطاب

المقاوم باعتباره خطاباً مكتوباً وشفهياً ويمتد في مراحل تعود إلى بدايات نشأة الفعل المقاوم. ولكننا نهدف إلى مقاربة الخطاب الشفهي المسنود إلى الزعيم نفسه، لتبيان ما يحمله من دلالات وتصورات وما يرسمه من آليات وتحديدات منهجية للوصول إلى الأهداف، فضلاً عن الوظيفة الاستقطابية لهذا الخطاب باعتباره أداة تواصلية تتحرك في دائرة الخاص والعام، ولكن قبل ذلك علينا تبيان فعل الكلام حين يكون سلطة ناشئة عن الكلام نفسه قبل أي شيء آخر.

في مجتمعات الديمقراطيات الحديثة يبقى كلام الزعيم مقروناً بالسلطة. ولكن حق الكلام الذي يمارسه الزعيم ليس فعلاً طقوسياً، يمارسه بإزاء الجماعة التي تظهر القبول التام لمعنى الكلام. هي تنصاع نحو القبول لاقترانه بالسلطة. ولكن على الزعيم أن يمارس مهمة الإقناع قبل كل شيء. قد لا يكون زعيماً متفوّهاً، أو خطيباً متمكناً ولكنه يمتلك القدرة على الإقناع، في تنفيذ الوعود، والارتقاء بحال الجماعة، وإلا فللجماعة حق نعته بالكذب والزيف والخداع.

إن التبرير والإقناع يشكل جانباً من كلام الزعيم لكي يكون مقبولاً، هو كلام مقرون بقدرته على أن يكون كلاماً سلطوياً، لكونه يترتب عليه فعل إجرائي مشفع بالتنفيذ والاستجابة حتى ولو لم يحظ بالقبول.

مع أن مقتضيات السلطة تعطي للزعيم حق الكلام. ولكنه ليس حقاً حصرياً، فللقادة الخصوم حق في الكلام غير أن الفارق بينهما هو في حجم السلطة وعموميتها المترتبة على الكلام. فحق الكلام لغير

الزعيم هو كلام الرقابة والدحض، وهو كلام التبرير والإقناع من ناحية أخرى.

إنــه كلام يستند إلى الحــق ولكنه يغدو واجباً على الزعيم حيث يجب أن يكــون مقنعاً. إن الكثير من مشاهد التلفزة في بعض دول الغرب تبرز الزعيــم حين يعرض برنامجه الانتخابي أو أداءه بعد تبوئه سدة السلطة مقابل زعيم آخر منافس أو معارض له يتبادلان الدحض والإقناع لكليهما فــي آن معاً، وعلــى الجمهور أن يكون الحكم على الــكلام، مع أن الفارق بينهمــا أن الأول يستنــد إلــى كلام مشفوع بالسلطة، فــي حين أن الآخر يدلــي بالكلام إيذانــاً بالوصول إلى السلطة حتى يتحــول بعد كلامه إلى سلطة الكلام.

إن عمليــة الإقناع لا ترتكز على مضمون الــكلام وحسب، وإنما يجب اقتران الاقناع بمزايا شكلية تسهم في عملية الإقناع، وهي ظهور الزعيم مظهر الواثق من نفسه لما سيقول أمام الجمهور، حيث يبرز جورج بوش فــي كثير مــن الأحيان يتقدم إلــى المنبر بخطوات الواثــق من نفسه في مشيــة معتمدة وذراعين منفصلتين قليلاً عــن الجسد يتجه نحو المنبر بما لا يحوجه إلى الظهور بمظهر الارتباك، أو رئيس الحكومة البريطاني توني بلير حين يقف واضعاً ذراعاً عن على المنبر بانحناء والتواء جانبي للجســد والرأس فيما اليــد الأخرى مسنــدة إلى وركــه الخلفي، كدلالة علــى أنه سيد الكلام، حيــث لا تدفعه مهابة المشهد إلى الارتباك، وإنما إلــى الثقة الزائدة بأن ما سيقول ليس كلامــاً فارغاً أو كلاماً يختزن في

مضامينه بعض الخداع والزيف، لأنه كلام مشفوع باقتناعه هو نفسه قبل أن يجهد في إقناع الجمهور.

على هذا الأساس في مقاربة الحق وواجب الكلام يمكن الولوج إلى خطاب السيد نصر الله بوصفه كلاماً منطلقاً من زعيم ليس عليه واجب الكلام لمجرد أنه يفترض بالزعيم أن يكون متفوهاً، وإنما من خلال طبيعة الكلام نفسه بتحوله ليس إلى سلطة مفروضة الطاعة وإنما إلى سلطان على النفوس التي تنقاد إليه دون ارتباطه بموقع السلطة حيث يقتضي الكلام.

قد يسود الاعتقاد أن الإعلام المتلفز يلعب دوراً بارزاً في تحويل الزعيم إلى قائد كاريزمي لما لثقافة الصورة المقرونة بالعمل الدعائي المستخدم بأرقى ما توصلت إليه التكنولوجيا الحديثة من القدرة على التقديم والإيقاع المشفوعين بالإثارة والإضاءة والوقع الحثيث في إبراز أو تحويل وإنجاح الزعامة. ولكن في جانب آخر يلعب الإعلام نفسه دوراً في أفول زعماء آخرين لما يتمتع به من دور في تسليط الأضواء على جوانب الضعف والإخفاق أو حتى تحويل الإخفاقات المتواضعة إلى فشل جسيم يضع الزعيم على بساط النقد والتجريح وسرعان ما يؤدي إلى ضمور دوره لدى الجماعة أو ينتهي به إلى الأفول.

من هنا تقتضي المقاربة في تسليط الضوء على الكلام نفسه في خطاب السيد نصر الله عبر الأخذ بمستلزمات التحليل للكشف عن العناصر الملازمة التي تدفع الأفراد نحو التماهي والانقياد والطاعة للقائد نفسه.

٢- شكل الكلام

لعل إحدى المزايا التي يتصف بها الكلام الخطابي للسيد نصر الله هـو ذلك التناسـق الجمالي لمقاطع ومفردات الخطـاب الذي تتخذ فيه المقاومـة موقعـاً محورياً مهما تنوعـت موضوعات المقاطـع واختلفت، فهـي تدور حـول موضوعة المقاومة في نشوئهـا وأهدافها وآليات عملها وتصوراتها وعلاقاتها وهمومها ومستجدات المشكلات والتحديات التي تتعرض لهـا، والتي تتخذ لها مقاطع متنوعة تتحـول بعدها الأجزاء إلى كل متناسق يشد الذهن نحو إدراك الموقف الكلي. في حين أن المقاطع تنطـوي علـى مفـردات تتداعى علـى لسان الخطيـب بانسيـاب يراعي مقتضيات التدرج في حال الصعود والنزول في نبرة خطابية تنطلق على نحـو من الهدوء الذي قد يطـول أو يقصر، ولكنه يتصـل بحلقة وسطى قصيرة يتحفز معها الموقف وتشتد الطاقة وتتكور فيتماهى معها السامع في انشداد وتحفز وانحباس للطاقة الانفعالية، لتليها نبرة كلامية عالية غالبـاً ما تحتوي على مترادفات متدفقة بانسجام جمالي وبوتيرة واحدة يتداخـل فيها ارتفاع النبرة المعززة بحركـة لليد اليمنى، وتعابير للوجه الـذي يكشف عن حال التماهي بيـن الخطيب ومحتوى الكلام نفسه. ثم لينتقل التماهي من الخطيب إلى الحضور الذي ينتهي إلى تحرير الطاقة الانفعاليـة المتحفزة حالما يصل الخطيب إلى نهايـة في أحد المقاطع الكلاميـة، والتـي تتخذ لهـا تعبيراً ماديـاً تبرز خلاله صيحـات التهليل والتكبيـر وارتفـاع القبضات وترديـد الهتافات في نغمـة وحركة تكشف

جماليتها المتناسقة عن الوقع السحري لكلام الخطيب ولحال التماهي مع الموقف.

إن القيمة التي يرتديها الخطاب شكلاً تنطوي على كثير من الأهمية التي تسهل عملية الاتصال الإدراكي لمكونات الخطاب، حيث تفيد المقاربة، بالإستناد إلى ما انتهت إليه بعض النظريات في علم النفس -وهي مدرسة الجشتالت- التي تعتبر أن الإنسان يدرك الموقف الكلي انطلاقاً من الشكل وانطلاقاً من وظيفة الدماغ نحو التأمل والإدراك لمكوناتها. وحتى ولو كان ثمة ثغرة وجدت بحال عدم تناسق أجزاء الكل الموحد يعمد الدماغ إلى ترتيبها وتنسيق مكوناتها. فلو كانت ثمة نغمات موسيقية تسير على نحو الانسجام التام سيراً تواصلياً ولكن من دون الوصول نحو نهاياتها عبر انقطاع فجائي، يعمد الإنسان إلى إكمالها بتمتمات مكملة لذلك التناسق الجمالي في النغمات، وكلما كان الموقف الكلي متناسقاً، خالياً من الثغرات، كلما كانت عملية الإدراك تنطوي على السرعة واليسر.

فالموقف الكلي هو الخطاب المقاوم في المبدأ والمنطلقات، وفي التوليف بين تنوع موضوعاته التي تنتهي إلى المبدأ نفسه وهو المقاومة، بما لا يحوج الذهن معها إلى التشتت بين أكثر من موضوع كلي، أو في موضوع كلي واحد ولكنه متنافر بين مكوناته وأجزائه ما يجعل عملية الإدراك لا تخلو من بذل جهد كبير في سبيل إقفال الثغرة.

أما إيقاعات النبرة الخطابية المتماهية مع طبيعة الموقف في حدته

وهدوئه حسب مقتضيات الحال، فهي تنم عن دراية كبيرة وبراعة فائقة في توظيف شكل الكلام نحو تعزيز حال الإدراك بالمضمون. وبهذا الأمر يكشف علم الدلالات أو الألسنية أن بنية الكلام ولو كانت واحدة إلا أن دلالاتها تتصل بجوانب شكلية أخرى، منها طريقة إخراج الكلام المنطوق أو إشفاعه بإيماءات الجسد. فلو دخل شخص على جماعة ما وألقى السلام بنبرة هادئة وآخر قام بالأمر نفسه ولكن بنبرة عالية مشفوعة بحواجب مقطبة وأسارير متجهمة لكان المدلول مختلفاً تماماً، مع أن الدال هو بنية الكلام المؤلف شكلاً من حروف السين واللام والألف والميم فثمة الكثير من الخطباء الذين تيسر لهم الظرف في الكلام ولكن دون أن تسعفهم مهاراتهم المتواضعة في الإلقاء، على تبيان ما تختزنه كلماتهم من مدلولات تتخطى أجزاءها ومكوناتها.

وعلى هذا الأساس من القدرة على مراعاة التدرج في إيقاع الخطاب، يمكن فهم غنى المدلولات التي يختزنها الكلام الخطابي للسيد نصر الله.

٣- في مضمون الكلام

أ- الهوية والسلطة

بالاستناد إلى الحقل السياسي، وإلى الرمزية الدينية للقائد في انتمائه إلى جماعة تشكل أحد المتفرعات الفقهية للدين، يمكن عقد مزاوجة بين خطاب الطائفة وخطابها السياسي الذي هو محور

اهتمامنا. فخطاب الطائفة يعني كيفية إنتاجه في ميدان دورته الفقهية القائمة على عملية التبليغ والممارسة للشعائر الدينية والطقوس العبادية في ميادين الزواج، والوفاة، وتأدية الفروض اليومية انطلاقاً من الخصوصية الفقهية للطائفة.

أما الحقل السياسي، فيعني كيفية تمفصل هذا الخطاب مع الواقع، بما يتمتع به هذا الواقع من خصوصية، تتعدى الطائفة، بكونها تشكل إحدى المذاهب الإسلامية المتنوعة في فهم كيفية ممارسة الشعائر الدينية، إلى منشأ هذه الخصوصية العائدة بدورها إلى كون الطائفة تشكلت على قاعدة ما كان مطروحاً على صعيد السلطة، وممارسة الحكم منذ وفاة النبي محمد ﷺ.

فلقد كان شكل الحكم في الإسلام متفقاً عليه أثناء حياة النبي ﷺ لجهة الحاكمية التي شغلها هو بنفسه، وبعد وفاته طُرحت الاشكالية بين السنَّة والشيعة حول طبيعة النظام السياسي الاسلامي: الإمامة أم الخلافة. فالشيعة اعتبرت أن القيادة السياسية وإمرة المسلمين مستمدة من الإمامة الدينية والروحية القائمة بالوصية المنصوص عنها والمتناقلة في ذرية النبي ﷺ.

وانطلاقاً من مفهوم الشيعة في الحكم، يُشترط في الحاكم أن يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية، وأن يكون معصوماً عن الخطأ والزلل. وبعد غيبة آخر الأئمة الإمام المهدي المنتظر والمؤمل عودته حتى يقيم دولة الإمامة، طرحت الرؤى لدى الشيعة حول التعاطي مع مسألة الحكم والسلطة.

لقد تمثلت إحدى هذه الرؤى بعدم جواز قيام دولة إسلامية أثناء غياب الإمـام لأن من يملأها هو مغتصب لحقه في الحكـم، وأفضى ذلك إلى نشـوء ميتولوجيا شيعية تستند إلى ثقافة جديدة، قوامها قعود المؤمنين وانتظـار عـودة الامام الثاني عشـر لإقامة دولته. لكن هـذه النظرية لم تـلاق استحساناً من بعض الفقهاء الذيـن اقتربوا من مفهوم بديل يقوم علـى مبدأ ولاية الأمة على نفسها في عصر الغيبة، فجاءت هذه الصيغة الاجتهادية في الفقه الشيعي لتحل اشكالية التعاطي مع الحكم والسلطة في ظل غيبة الإمام المعصوم[1].

وقـد مثلت رؤيـة الفقيه الشيعي محمـد حسن النائينـي الذي انفرد بالمرجعيـة الشيعيـة عام ١٩٢٠ إحـدى هذه الرؤى، وعلـى أساسها قاد الحركـة الدستورية الايرانية التي سميت «**المشروطة**» والتي هدفت إلى تقييد السلطة المطلقة للحاكم الزمني.

ولقد وظف النائيني هذه الآلية في الحكم كي يشرعن حق ولاية الأمة على نفسها في عصر الغيبة كشأن سياسي وليس كشأن شرعي[2].

وبهـذا المعنـى فلا تعـود الأمة ترزح خـارج الدولة، كمـا أنها ليست مدعـوة لتشكيل حكومـة إلهية دينية، بل حكومة مدنيـة عادلة تقوم على رقابة الأمة.

---

(١) محمد جمال باروت، يثرب الجديدة: الحركات الإسلامية الراهنة، دار رياض الريس، بيروت ١٩٩٤، ص ٦٥.

(٢) محمـد حسـن النائيني، تنبيه الأمـة وتنزيه الملّة، الغدير، العددان ١٢-١٣، المجلـد الثاني، القسم الثاني، آذار ١٩٩١، ص ١١٠.

وبمقابل نظرية ولاية الأمة على نفسها، شكلت نظرية ولاية الفقيه التي صاغها الإمام الخميني، في صورتها الأخيرة، اللبنة الأساسية في العودة إلى طرح موضوع إقامة دولة الإمامة. وهي الدولة التي يقيمها الفقيه العادل، الذي يجمع في إصدار الفتاوى بين السياسي والديني. فإذا كانت مواقف النائيني جاءت لتؤدي إلى تكييف الأمة مع الواقع، إلا أن حكومة الفقيه التي طرحها الإمام الخميني أدت إلى إحداث تحول آخر للطائفة عن طريق إخراجها إلى المجال الإيديولوجي السياسي، انطلاقاً من الفقيه نفسه كنائب عن الإمام المعصوم، وكبديل عملي لإخراج الموقف التاريخي للشيعة القائم على نفي شرعية أي دولة لا تقوم على مبدأ الإمامة، إلى الحيز الفعلي الذي أخذ مجاله إلى التطبيق مع تأسيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وفي ظل تلك الأجواء شكلت العودة لآراء المرجعية الدينية المتمثلة بالإمام الخميني، مرجعاً آخر للطائفة يقوم على الالتزام بالولاء لزعامة جديدة هي زعامة الولي الفقيه، الذي يمارس دوره من خلال التحريض والتسديد والتذكير بالمسؤولية الشرعية، ويجد في الفقه الإسلامي ما يتخطى الدور التقليدي لهذا الفقه إلى المجال السياسي بعدما كان يرتبط لدى بعض رجال الدين بحدود المعاني العبادية والتشريعات الفردية البحتة.

فولاية الفقيه، وفق منظور الإمام الخميني ترى أن دور العلماء مماثل لدور الأنبياء والأئمة. وعملهم لا ينحصر فقط في بيان المسائل والأحكام

بـل يتعداها إلى وظيفـة أخرى هي إقامة نظـام اجتماعي عادل وتطبيق الأحـكام والقوانين، وتنظيم النـاس على أساس العلاقـات الإسلامية. فالعلماء مكلَّفـون ببيان الأحكام للناس وتطبيقهـا. والتطبيق يعني أخذ الـزكاة والخمس وصرفهما في مصالـح المسلمين ونشـر العدالة بين أفراد البشر والحفاظ على أراضي المسلمين واستقلالها(١)

فولايـة الفقيه على هذه الحال، تمثـل الامتداد الطبيعي لولاية الإمام المعصوم. فالفقيه ينوب عنه في غيابه ويمارس ولايته، بمقتضى النص بعد المعصوم.

وبالاستنـاد إلـى هذا الرأي، نجـد أن الإمام الخمينـي أرسى زعامة جديـدة من خلال خطـاب ثوري ارتكز علـى الفقه الإسلامـي وإحضار هـذا الفقـه فـي الكشف المكثـف للواقـع الإسلامـي بأبعـاده الداخلية والخارجية.

وتجسـد هذا الخطاب عبر خط استنباط البعـد السياسي في حركة المرجعيـة من البعد الفقهي الذي تتكرس من خلاله زعامة الفقيه. هذا الفقيه يمتلك بدوره استعـدادات ذاتية وموضوعية للاجتهاد، تقوم على غزارة العلـم كمقدمة لاستنباط الفتوى، وعلى البعـد المسلكي المحدَّد بصفات الورع و التقوى والعدالة(٢).

هذه الزعامة هي التي سيعـود إليها المؤمنون في الاسترشاد الديني

(١) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، مركز بقية الله الأعظم، بيروت ١٩٩٨، ص ١٠٧.

(٢) الإمام الخميني، تحرير الوسيلة، الجزء الأول، سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية بيروت، ١٩٩٧، ص ٧.

والسياسي من منطلق الطاعة والالتزام بالتكليف الشرعي[1]. سيعود إليها أيضاً رجال الدين الذين لم يصلوا إلى مرتبة الاجتهاد في الدين، فيتحدد دورهم بنقل توجيهات وفتاوى الولي الفقيه، وبذل الجهد في تبيان أحكام الإسلام والابتعاد بأنفسهم عن المتلبسين بلباس رجال الدين المتملقين للطغاة الذين يستغلون المكانة المعنوية لعلماء الإسلام[2].

إن هذا الدور، الذي رسمه الإمام الخميني للمرجعية الدينية، وجد طريقه إلى الممارسة الفعلية لزعامة الولي الفقيه في إيران وخارجها. ففي لبنان بدأت أولى تباشير إعلان الولاء لهذه الزعامة مع الإعلان عن استمرار العمل المقاوم ضد إسرائيل قبل تشكيل حزب الله. ثم ما لبث الحزب أن أعلن عن تأكيد هذا الولاء لزعامة الولي الفقيه في الرسالة المفتوحة التي وجهها عام ١٩٨٥، والتي أعلن فيها الالتزام بأوامر الولي الفقيه كقيادة واحدة وحكيمة وجامعة للشرائط وتتجسد بالإمام الخميني[3].

وبعد وفاة الإمام الخميني حرص حزب الله على إعلان ولائه للولي الفقيه الجديد الإمام علي الخامنئي، لأنه وجده الأقدر بعد الإمام الخميني على إعطاء الرأي والفتوى لكل الحركات الإسلامية والجهادية ومدركاً لساحات الجهاد ولخوض معركة التحدي ضد الاستكبار وأدواته[4].

---

(١) الإمام الخميني، الكلمات القصار، الوحدة الثقافية لحزب الله. بيروت، ١٩٩٢، ص ٥٩.

(٢) عادل رؤوف، الإمام الخميني رجل القرن الحادي والعشرين، دار الحق، بيروت ١٩٩٨، ص ١١٧.

(٣) حزب الله، الكتاب السنوي، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، بيروت ١٩٩٤، ص ٥٦.

(٤) حزب الله، الكتاب السنوي ١٩٩٤، مصدر سابق، ص ٥٦.

من ناحية أخرى فإن الدور المحوري الذي تلعبه هذه الزعامة يتجلى في الطاعة المطلقة والالتزام بالأوامر والنواهي الصادرة عنها.

ولا بد لهذا المفهوم في الطاعة للفقيه كي يكون متحققاً لدى الأفراد من نقله إلى وعيهم، فبدون ذلك يبقى دور زعامة الفقيه مقتصراً على أبعاده النظرية أو بالكاد يتسرب إلى قناعات بعض النخب من رجال الدين الذين تيسر لهم الاطلاع أو التعمق في الثقافة الإسلامية من خلال دراستهم في الحوزات الدينية.

لقد تم ذلك من خلال حلقات التبليغ التي كان يحييها رجال الدين في المساجد على مدى أعوام عديدة، حيث كان عليهم شرح نظرية ولاية الفقيه التي نادى بها الإمام الخميني.

ومن جهة أخرى، استند حزب الله في تعبئة عموم أفراد الطائفة حول الزعامة والولاء للفقيه، على المناسبات العامة. فجرى الربط بين الإمام الحسين، المثال الأعلى والرمز، و القائد الفقيه العادل، جاعلاً طاعته بمثابة طاعة مستمدة من قدسية الأولياء والأئمة العظام[١].

فالولاء للقائد يتوحد أيضاً بالولاء للامام الشهيد أو لسيد الشهداء الإمام الحسين. ولذا ينسب أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله في إحدى خطاباته إلى الإمام الخميني الراحل صفات الولي، ويعتبره سليل النبي محمد الذي يجسد الصلة مع الإمام الحسين، ومع الأنبياء،

---

(١) د. محسن صالح، وعباس مزنر، صورة المقاومة في الإعلام، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت ٢٠٠١، ص ١٢٧.

وبأنه لم يكتف بتقديم النظرية في الحكم، بل برهن عن ذلك في ساحات الجهاد والثورة، وحين طرح إطاراً واسعاً لمواجهة الظلم والاحتلال، وهو إطار المظلومين والمستضعفين والجائعين والحفاة. لذلك فالمعركة يجب أن تخاض في الدائرة الأوسع والأكبر من العشيرة والحزب والطائفة، معركة الدفاع عن الإنسان وكرامته، وأرضه المغتصبة ودماء نسائه وأطفاله، المسفوكة ظلماً وعدواناً[1].

هذا الربط بين الرمز الشهيد والولي الفقيه، لم يكن ليقتصر على المناسبات التي تتعلق بانتصار الثورة أو الذكرى السنوية لرحيل الإمام الخميني، وإنما غدا ضرورة يجب تأكيدها في كل مناسبة، إذ ينبغي على الخطيب قبل البدء بالحديث عن موضوع المناسبة الافتتاح بعد الصلاة على النبي والأئمة الاثني عشر، بإرسال التحية أمام الجموع المحتشدة إلى الولي الفقيه، وتجديد البيعة والبقاء على العهد في طاعته والتزام أوامره.

وليس من شك أن هذا الأسلوب في التعبئة لا يعزز أهمية القائد في الجانب العبادي والشعائري فحسب، وإنما يعزز أهمية وشرعية وسلطة القائد في كل زمان ومكان، فتخرج هذه السلطة «**الإلهية**» من التاريخ، وتتصل بالحاضر، لتجسد الأمل والوعد الإلهي بالانتصار للمستضعفين والمقهورين، الذي يمثله الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر[2].

والاتصال بالحاضر هو أن يعمل الإنسان بمسؤولياته الشرعية الملقاة

(١) السيد حسن نصر الله، فصل الخطاب، دار الثقافة الإسلامية، بيروت ١٩٩٨، ص ٣٧.

(٢) د. محمد محسن، وعباس مزنر، صورة المقاومة في الإعلام، مصدر سابق، ص ١٢٨.

على عاتقه، من قضاء حوائج المحتاجين، ودفع الظلم عنهم، ومحاربة الطواغيت، ونشر العدل، ولا يكون ذلك إلا بالولاء والطاعة لنائبه الولي الفقيه[1]. ولذا فإن الخطاب التعبوي في ربطه بين طاعة القائد الفقيه، وبين الأئمة، مع الأمل في تجسيد الوعد الإلهي بالنصر، شكل أحد مرتكزات الخطاب في التغيير، وفي لعب دور الاستقطاب. فالالتزام بقيادة الفقيه أصبح يشكل من الناحية العملية أحد متممات الفهم الشيعي المستمد من الأصول المرجعية للطائفة، وعنصراً من عناصر القوة لدى الحزب، ومدخلاً للتماسك الحديدي لدى الأفراد المنخرطين في صفوفه، ولدى الجماعات المنتمية المؤيدة لمشروعه الجهادي.

وعلى هذا الأساس، يكون حزب الله قد أخرج الاعتقاد والولاء للفقيه من خطابه «**النظري**» إلى حيز الواقع التنظيمي، فأصبح أمر الطاعة للولي القائد أمراً عبادياً وتكليفاً شرعياً يأخذ طريقه نحو الانتشار بين أبناء الطائفة، ويؤدي إلى إحداث التماهي بين القائد وبين «**الجماعة**»، لكونه يجسّد المثال الأعلى والنموذج الذي يستطيع تحقيق حلم الجماعة، بما يمتلك من خصائص مادية، ونفسية، ونسب نبيل. فهو ليس شخصاً عادياً تفوض إليه الجماعة أمرها، بل هو الأقدر على إدارة أمورها، وهو صاحب السلطة والوازع الذي ينبغي على جميع الأعضاء الدخول في طاعته وتسليم أمر الولاية له.

---

(١) السيد حسن نصر الله، فصل الخطاب، مصدر سابق، ص ٣٤.

انطلاقاً من هذا الدور للولي الفقيه وفق نظرية الإمام الخميني، وعلى قاعدة الولاء المعلن من حزب الله للولي الفقيه في الاسترشاد الديني والسياسي يتضح أن هذا الولاء تتحدد وظيفته الاستنهاضية في محاربة الاحتلال الصهيوني ومحاربة الاستكبار أكثر مما تتحدد في ضرورة الاضطلاع بتشكيل دولة الإمام. ذلك أن الإمام الخميني كان قد أدخل عاملي الزمان والمكان في حيز الاستنباط الفقهي، ما يعني أن الفقه الشيعي وفق هذه النظرة مفتوح على مقتضيات الواقع التي استفادها حزب الله بالتكيف مع الواقع. فهو إذ لا يتنكر للدعوة إلى إقامة حكم إسلامي في الرسالة المفتوحة ولكنها مقرونة باختيار اللبنانيين، وهو ما يصح على بقية أرجاء العالم الإسلامي.

وبالاستناد إلى الكلام الخطابي للسيد نصر الله فإن هذا الخطاب يخلو من الدعوة إلى دولة الإمامة كبديل راهن في العالم الإسلامي بقدر ما يدعو إلى الوحدة الإسلامية في مقام الأخوة بين المؤمنين وفي مقام الاستنهاض بمواجهة الاستكبار العالمي.

ففي عشية دخول الجيش الأميركي إلى العراق كانت ثمة دعوة صريحة من السيد نصر الله لعقد طائف عراقي تدخل فيه مكونات الشعب العراقي وأطيافه السياسية وبينها حزب البعث الذي تزعمه صدام حسين إيذاناً منها بتوحيد الطاقات ورأب الصدع في المجتمع استعداداً للمواجهة.

وفي مخاطبته الحكام العرب عشية عدوان تموز ٢٠٠٦ على لبنان

ليس ثمة نزع للشرعية عن هؤلاء الحكام تحت طائلة عدم المشروعية المستندة إلى الرؤية الفقهية، بقدر ما هي دعوة للاضطلاع بمسؤولياتهم تجاه الأمة جراء التهديد الصهيوني وانغماسهم في دائرة الإذعان للغرب بمعزل عن إرادة شعوبهم وحريتها في التعبير عن تقديم تجربتها في ميدان ما تتعرض له الأمة وهو ما يتفق مع مقتضيات الاستنهاض. وأما فيما يتصل بلبنان، فثمة ركون في خطاب السيد نصر الله إلى المعطيات الاجتماعية والتاريخية للاجتماع الأهلي اللبناني، فليس ثمة دعوة جراء أزمة الواقع السياسي إلى الارتفاع بهذا الواقع نحو إقامة دولة الإمامة كإحدى التعبيرات للخروج من الأزمة الناشئة بفعل الانقسام الطوائفي. فما يدعو إليه الكلام الخطابي للسيد نصر الله هو التطلع نحو عقد شراكة في السلطة التي تحيل إلى المساواة في المواطنية وعدم الاستئثار أو الإلغاء[1] دون أن يحيل ذلك إلى إعادة الإنتاج التاريخي لاختلالات النظام السياسي اللبناني بل ليضع المداميك من أجل إقامة الدولة الفعلية القوية والعادلة التي عبر عنها السيد نصر الله أثناء طرحه لاستراتيجية المقاومة.

وبالتأكيد فإن ثمة نقاشاً مفتوحاً بين مكونات الشعب اللبناني حول ماهية وكيفية العبور نحو هذه الدولة التي تؤسس لمواطنية مشتركة، ولدولة غير منقسمة على نفسها، يجتمع أفرادها لرسم السياسات العامة

(١) راجع خطاب السيد نصر الله منذ ٢٠٠٥-٢٠٠٦

وتنفيذها بمعزل عن نفوذ الطوائف، وتنظم عملية التنافس السياسي بعد أن ترسم الإطار الكلي للمواطنين، تتكفئ فيها الطائفية السياسية دون الشعور بالغبن جراء الطغيان العددي لطائفة ما بوضع أسس دستورية ترسم معالم الطريق نحو بنائها، ودون أن تتحرك المعارضة أو أركان السلطة انطلاقاً من الشعور الطائفي، وإخراج مقولة السيادة من بعدها النظري إلى البعد العملي بعد حسم هوية لبنان ووظيفته في محيطه الإقليمي.

ب- الخطاب والهوية

ترتبط الهوية القومية في أحد جوانبها بغاية استكشاف التجانس والتشارك بين أفراد الشعب أو الجماعات التي تسمى أمة. ولكن ثمة غرض آخر يتصل بغايات أخرى تنطوي على تنوعات مختلفة بينها ما تشكله الهوية الجامعة من تظهير لمكونات شعورية نفسيه تختزن في منطوياتها إحساساً بالمنعة والقوة للذات الجماعية أو جماعة «**النحن**» التي تشكل أمة بإزاء أخرى تتغاير معها شرط أن تعبر المغايرة عن تصور الفروق مع الآخر المختلف لترسم الحدود معه وتضع ملامح الالتقاء والاختلاف.

ولا تستطيع الآمة تحديد موقعها من الآخر ما لم تستولد عناصر التشارك والتجانس فيما بينها، وإلا فهي معرضة للتصدع والانقسام على نفسها ويؤدي ذلك إلى إضعافها وتوهينها.

لذلـك، فإن شـرط المغايـرة هو تحديد الـذات بما تقـدم عليه من مرتكزات أولاً، من ثم تحديد من هو الآخر المختلف في ذات مغايرة.

في حين أن تحديد مرتكزات الذات استند لدى الشعوب إلى تصورات اختلفـت باختلاف أدوات التفكير لدى نخبها ومفكريها. فأحياناً نجدها ترتكـز على السلالـة أو على الدين أو اللغة أو على مـا يشدها إلى تاريخ مشتـرك أو إرادة في العيش في حاضرها ومستقبلها. إن اختلاف أدوات التفكيـر يساهم فـي كثير من الأحيان في إعاقـة الاتفاق على تحديدات نهائيـة للهوية القوميـة وإرسائها على مكونات صلبـة تحظى بقبول تام. أو بتعبيـر آخـر، فمـا يعد مرتكزاً صلبـاً لدى بعض المفكريـن يمكن أن يكـون مرتكـزاً مائعاً لدى آخريـن لا سيما إن كان الأمـر يرتبط بغايات سياسيـة هادفة إلى تحقق الهوية القومية في إطـار دولتي قوامه المدى الجغرافي للدولة، ونطاق ممارسة السلطة المنبثقة من الأمة نفسها دون سواهـا. لقد أدى هذا الاختلاف وخصوصاً فـي منطقة الشرق الأوسط - ومنهـا لبنـان- إلى تعدد الرؤى حول الهوية القومية، فثمة هويات يتسع مداهـا ويضمر بحسب روادها، فمثالاً نجد جمـال الدين الأفغاني نادوا بجامعة إسلامية تصهر شعوب العالم الإسلامي في بوتقتها في حين أن دعـاة القومية العربيـة نادى بأمة عربية في وطـن عربي لارتكازها على مبدأ اللغـة بينما نادى القوميون السوريون بأمـة سورية في وطن سوري حدوده منطقة الهلال الخصيب ليضمر هذا التحديد لدى دعاة الكيانية اللبنانية إلى لبنان الوطن المسيحي ولبنان بحدوده الحالية.

إزاء هذه التحديدات لمفهوم الهوية القومية برزت تعارضات بين دعاة القومية في العالم العربي والإسلامي حيث وجد الإسلاميون لدى دعاة القومية العربية سبيلاً مانعاً من تحقق الوحدة الجغرافية لأقطار العالم الإسلامي ومن عودة دولة الخلافة التي كانت قد جمعت ووحّدت فيما مضى كافة المكونات والشرائح الإثنية واللغوية، فيما وجد دعاة العروبة في الهوية القومية الإسلامية استيعاداً لمكونات وشرائح تقوم على أساس ديني. ولم يخرج لبنان عن دائرة الجدل مع دعاة الكيانية التي تفصل لبنان عن محيطه العربي أو الإسلامي ومنع إقامة وحدة اندماجية تقوم على أساس العروبة أو الإسلام. وبالعودة إلى الكلام الخطابي للسيد نصر الله فغالباً ما يتم الاستناد إلى مفردة «**الأمة الإسلامية**» وأحياناً «**العالم العربي الإسلامي**» ما يعني أن دلالات الاستخدام يتم فيها تغييب التنظير الأيديولوجي لأن الخطاب ليس خطاباً في الإيديولوجيا وإنما هو خطاب استنهاض قوامه الانطلاق من التشارك في الانتماء إلى البعد الاعتقادي المتمثل بالإسلام وتحفيز الشعور المشترك في سبيل القضية الصراعية مع إسرائيل والغرب، وكذلك فهو لا يقوم على أساس القطيعة بين العروبة والإسلام وجعل أحدهما بمواجهة الآخر، وإنما يترك المجال أما الخصوصيات لتعبر عن نفسها كما هي لدى التبرير الفكري والإيديولوجي. فهو ليس خطاباً دعوياً نحو الاندماج الجغرافي والسياسي، كما أنه لا يقوم على دحض الدعوات المتواجهة في محددات الهوية، بقدر ما هو دعوة لتثميرها

وتوظيفهـا في معركة مشتركة. ذلـك أن الدخول في معترك التحديدات الإيديولوجيـة للهويـة قد يحيل إلـى كيفية تثمير هـذه الانتماء في حقل السلطة، التي يقف منها الخطاب موقفاً آخر.

علـى هـذا الأساس، ومـع غياب الاستخـدام الإيديولوجـي، فلا يعد الخطـاب كلامـاً خاصاً، وإنما هـو مفتوح على النحو العـام الذي يفسح للمنطلقـات الإيديولوجية المجال أن تجد فيه مساحات مشتركة للتكيف معه على أساس انه خطاب استنهاض عام وليس خطاباً خاصاً.

وعلـى هذا النحو من العموم، تصبـح الطائفة جزءاً من هذا المكون العام باعتبارها تشكل أحد عناصره المتوالفة مع العروبة والإسلام سواء على مستوى الانتماء أو على مستوى تثمير وتسويغ هذا الانتماء في سبيل القضية الصراعية.

أما فيما يتصل بتمفصل العروبة والإسلام مع الواقع اللبناني فإن في الخطاب مجال للقول إنه ثمة تحديد لهوية يتشارك فيها اللبنانيون تقوم علـى أساس المواطنة قبل أي شـيء آخر، والتي ينبغي لها أن تتكامل في وظيفتهـا مع الدور الاستنهاضي العام في موقعيته العروبية والإسلامية، دون المساس بالخصوصيات التكوينية للمجتمع اللبناني.

ففي الخطـاب الموجه إلـى اللبنانيين يجري الركـون إلى استخدام مفـردة الشـركاء فـي الوطـن إذ ثمـة خصوصيـات وثمة وطـن محدد ببقعـة جغرافية يتم تحديدها بالإشارة الصريحـة جبلاً وبقاعاً وجنوباً

وشمالاً[1] وهي مناطق لطالما جرى الجدل حولها حين ضمت إلى الجبل غداة إعلان لبنان الكبير عام ١٩٢٠ ما يعني أن للكيان اللبناني حضوراً في الخطاب ولكنه حضور لا يحيل إلى خصوصية وسطية تقوم على أن الكيان يقوم على أساس توليف حضاري يحيل إلى ثنائية انتمائية تتمثل في الانشداد نحو الغرب والشرق في آن معاً كما جرى غداة عام ١٩٤٣ (ذو وجه عربي).

إذاً فثمة هوية تقوم على أساس التنوع في إطار الوحدة، أي الوحدة الانتمائية المتحددة بإطار التشارك أو الناتجة عن عقد اجتماعي إرادي للعيش معاً في إطار جغرافي. ولكنه إطار ينبغي له الحضور إزاء ما يهدد مرتكزاته الوجودية المتمثلة بالعدوان الإسرائيلي سواء تمظهر هذا التهديد بالعدوان اليومي على لبنان في سمائه وأرضه، أو من خلال السعي إلى فرط عقد الشراكة بين مكوناته لكي يعاد ترتيبها على النحو الذي يخدم المشروع الصهيوني والأميركي في تفتيت المنطقة ليسهل ابتلاعها. ولعل أكثر ما يؤكد على هذه الدلالة هو تساوق الخطاب مع طرح الإستراتيجية الدفاعية التي تقوم على الدور التكاملي بين الدولة والمقاومة، والمقرونة الارتباط بدوام التهديد الإسرائيلي للبنان.

(١) من خطاب للسيد حسن نصر الله خلال حرب تموز ٢٠٠٦.

ج- الخطاب واتجاهات السلوك

- **تعزيز الاتجاه**

وهو من الدلالات المتضمنة في الكلام الخطابي للسيد نصر الله والتي تنطلق من التعزيز للميول السائدة لدى الأفراد فضلاً عن تكوينها لدى آخرين ممن لم يتضح لهم الميل نحو تأييد الفعل المقاوم.

ولكن بداية نود تحديد هذا المفهوم لإزالة الالتباس الذي يمكن أن ينشأ حوله. فإحدى تحديدات الميل هو أنه حب الفرد لنشاط معين، ورضاه عنه، وتركيز ذهنه فيه، والاستعداد إلى بذله أقصى مجهود فيه، والاستمرار فيه أطول وقت ممكن. ويعرف الميل «**بأنه النزعة السلوكية العامة للفرد نحو الانجذاب إلى مجموعة معينة من أنواع النشاط**»، وتعني كلمة الانجذاب «**أن الفرد يهتم بشيء له قيمة بالنسبة إليه أو يبحث عنه أو يتجه إليه أو يكافح للحصول عليه**»[1].

ومن هنا، فإن المقاربة تقتضي الوقوف على الكيفية التي غدا فيها الفعل المقاوم نزعة سلوكية لدى غالبية الأفراد والشرائح على مستوى الأمة، تنشدُّ إليه، ويحظى بتأييدها.

قد يسود الاعتقاد بأن الميل إلى الرضا عن الفعل المقاوم ناشئ عن فراغ، باعتبار أن الفرد يكتسب معظم ميوله واتجاهاته وقيمه ومثله العليا من المجتمع الذي يعيش فيه أو بالأحرى نتيجة التفاعل بينه وبين هذا

(١) د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، دار الافاق الجديدة، بغداد ١٩٩٣، ص ١٧٦.

المجتمع، وذلك من خلال ما يمر به الفرد من خبرات ومواقف منذ طفولته المبكرة، ولا تقتصر علاقة الفرد بالمجتمع على مجرد اكتساب الاتجاهات والقيم بل أن المجتمع هو الذي يحدد للفرد الدور الذي يقوم به.

وبطبيعة الحال، فإن ما هو سائد في المجتمع العربي لا يوحي على الإطلاق بأن هذه المجتمعات عبر أطرها التربوية الناتجة عن السياسات التربوية التي تضعها الدولة، تؤكد على تكوين الاتجاه فيما يتصل بالفعل المقاوم. ذلك أن هذه المجتمعات تنشد سيادتها على نفسها ودوام استقرارها والمضي في عقلنة الصراع مع العدو الإسرائيلي عبر مشاريع الحلول الاستسلامية. ولكن واقع الحال يكشف أن الخطاب المقاوم للسيد نصر الله ينطلق من أن ثمة اتجاهات وميولاً تتصل بالاتجاه نحو تأيد الفعل المقاوم وهي تستوجب التعزيز للتحول نحو الفعل الاستنهاضي.

فحين تفصح بعض مضامين الخطاب عن اتصالها بموضوعة القيم السائدة، وعما يختلج في الوجدان الجمعي المعادي بطبيعته للمشروع الصهيوني، فهي تعيد الاتصال بمخزون الذاكرة الجمعية وبالوعي الجمعي وتعمل على تنشيطها وتحفيزها حيث يجري التركيز في الخطاب على البعد الإيماني كمنطلق أي الإيمان بالله الحاضر دوماً في الوعي والوجدان لدى هذه الشعوب، وكذلك في عدم إغفال منطلقاتها الإسلامية على أنها منطلقات عامة تخص جميع المسلمين بل تعمل بموجب التعاليم الدينية الناشئة عن الإسلام للسعي نحو الحرية والعدالة ورفض الانصياع للظلم. وبذلك تصبح المقاومة بمنطلقاتها

الإسلامية محمَّلة بشعار حضاري يدفع نحو الالتفاف حوله، إذ لا يصح للأفراد الانضواء في عناوين تغييرية حضارية لا تنتمي لها ولا تعبر عن انتماءاتها.

لقد غاب الشعار الحضاري المتمثل بالإسلام عن النخبة العربية الحاكمة أثناء خوضها للصراع، ولكن رغم هذا الغياب فقد استحوذت الطروحات القومية على تأييد الشعوب العربية لا لتعاطفها مع المشروع القومي الوحدوي الذي يجد في إسرائيل مانعاً وجودياً من تحقيق هذه الوحدة باحتلالها بلداً عربياً وتهديد أقطار عربية أخرى، لكنها في تأييدها هذا لم يغب عن وعيها أن ثمة مشروعاً صهيونياً يقوم على أبعاد دينية، لشعب الله المختار في نزوعه لتشكيل دولته من الفرات إلى النيل، وهو ما تقدمه هتافات التنديد بالعدوان الإسرائيلي في الحروب السابقة لاجتياح عام ١٩٨٢ معلنة التعبئة والدعوة إلى فتح باب الجهاد لتحرير المقدسات.

وعلى هذا النحو، فإنها تجد في الكلام الخطابي للسيد نصر الله ما يعيد الاتصال بالوعي الجمعي للشعوب العربية والإسلامية والذي ظل قاصراً عن تقديم تجربته في المراحل السابقة بسبب اضطلاع الأنظمة بهذا الدور الصراعي. وحين تشكلت المقاومة الفلسطينية مالت هذه الشعوب نحو دعمها وتأييدها بعدما وجدت فيها نموذجاً مقاوماً يختلف عما خبرته من نظمها التي تراجعت على يدها القضية الصراعية بعدما دارت في فلك المداولات الدولية. غير أن هذا الوعي الذي اتجه نحو

المقاومة الفلسطينية سرعان ما بدأ يتجه نحو الانحدار بفعل التصورات العلمانية للمنظمة التي وجدت فيها ما يتيح إقامة دولة تعايشية بين المكونات الدينية في فلسطين ومن ثم إقامة دولة على بعض أجزاء الأراضي الفلسطينية وعاصمتها القدس ولكن من دون أن تحظى بمقبولية العدو الإسرائيلي.

ومع هذه الإخفاقات وجدت هذه الشعوب في خطاب المقاومة نموذجاً متضمناً لعناصر ثقافية ليست غريبة عن مزاجها التكويني العام تتمثل عناصره في مفردات مركزية تمثل حقلاً دلالياً متوالفاً لا يغيب عنه. فمن الابتداء بالبسملة والحمد والصلاة على النبي الأكرم التي لا تفارق خطاب السيد نصر الله، إلى الإفصاح دوماً عن هوية المقاومة ومنطلقاتها المتمثلة بالإسلام، ومن ثم إقران الفعل المقاوم بالجهاد والاستشهاد المعزز بآيات قرآنية تحضّ المؤمنين على النهوض في سبيل الدفاع عن المقدسات وذم القاعدين والمتقاعسين. وهي مفردات تتمثل دلالاتها بإعادة التذكير بها، ويسهل إدراك ما تحمله من معان لاقترانها بالوعي الجماعي لهذه الشعوب التي تعيد استحضارها في مواجهة الموقف الصراعي الذي يهدد مقدساتها ومرتكزاتها الوجودية المتمثلة بهويتها الحضارية.

- **تكوين الاتجاه**

ثمة دلالات أخرى متجاوزة لتعزيز الاتجاه لدى الأفراد في الكلام الخطابي للمقاومة من شأنها الدفع في تكوين الاتجاه والميل إلى

الانجذاب إلى الفعل المقاوم وقيادته، ذلك أن مفردات الكلام من شأنها تحريك هذه النزعة السلوكية لإفصاح دلالاتها عن معانٍ ترضي في الأفراد مشاعر سارة، كما ترضي دوافع أخرى قوامها الارتفاع بالشعور بالنقص المتشكل على مدى عقود من الزمن بسبب سلسلة الإخفاقات الناتجة عن الصراع مع العدو الإسرائيلي.

فالوعي الجماعي لدى الأمة كان ما زال يتحرك على أساس الشعور بهذا النقص الناتج عن انعدام حال التوازن مع العدو والذي كان يدفع دوماً إلى التفتيش عن كل الممكنات التي تؤدي إلى تحويله نحو الشعور بالاقتدار، وإلا ما كانت هذه الشعوب لتخفي مشاعر العداء للمشروع الصهيوني رغم انتصاراته على مدى عقود مضت.

في حين أن وقع الكلمات في خطاب السيد نصر الله يحمل كل ممكنات هذا التحويل نحو الشعور بالاقتدار « **لا مجال للخوف لا مجال للتراجع، إن إسرائيل أوهن من بيت العنكبوت**» وتتناهى إلى الأسماع من قيادة المقاومة وهي مقرونة بالفعل المقاوم الذي سرعان ما يثير مشاعر سارة في نجاحاته الممتدة من العمليات الحاصلة قبل التحرير والتي انتهت إلى تحقيق التحرير عام ٢٠٠٠ ثم الانتصار في حرب تموز عام ٢٠٠٦ والتي ندر لمقاومة عربية أن خاضتها على هذا النحو من الصمود والعناد على إحراز النجاح.

فالخطاب هو خطاب النجاح وإحراز النصر، إذ للشجاعة وللتصميم فيه محل يبرز أشد وضوحاً وجلاء من خطابات الهزيمة والاستسلام

الذي يثير مشاعر مؤلمة وغير سارة باعتبارها متواصلة مع الإحباطات السابقة. إنه ليس كلاماً سياسياً ولكنه كلام في السياسة التي تعبر عن إستراتيجية المقاومة، باعتبار أن في الكلام السياسي مضامين قد تختزن أشكالاً من الزيف والخداع لتسويغ المشروع السياسي للاستحواذ على السلطة والذي سرعان ما يتبدد حين الاستئثار بها.

لقد خبرت الشعوب العربية تجارب خطابية في التنمية والديمقراطية والتحرير كانت تثير فيها مشاعر سارة لوقت ما قبل أن تكتشف مدى صدق تلك الوعود أو عدمها. في حين نجد في الخطاب المقاوم مفردات تقرن المثابرة والتصميم بالوعد بالنصر « **أنا أعدكم بالنصر**» الذي لا يجد دلالاته في نتائج عدوان تموز عام ٢٠٠٦ بقدر ما يجدها في تجربة المقاومة على مدى عقدين من الزمن. فهو كلام يحمل القابلية على الاستهواء وسرعة التصديق والتقبل لأنه صادر عن شخصية تقرن القول بالفعل ومن دون مواربة وانحراف في اتجاه المقاومة حتى في أشد الظروف صعوبة ومرارة .

كما أن دلالاته ليست ناتجة عن الرغبة في الشحن الانفعالي وتحريك الغرائز بقدر ما هي ناتجة عن تبريرات منطقية تخاطب الوعي والعقل العملي للأفراد حيث تفصح هذه التبريرات عن الكشف عن ممكنات النصر بالاعتماد على الوعد الإلهي «**إننا نعتمد على الله**» كدلالة على تماهي القيادة مع منطلقاتها الإيمانية المستمدة عن القرآن الكريم وهي ناتجة من فعل التجربة «**كما هزمناكم في عام ٢٠٠٠ سنهزمكم إن**

شاء الله» وفي الركون إلى ممكنات القوة«**لقد كنا أقل قوة قبل عام ٢٠٠٠ وها نحن أكثر قوة واستعداداً**» وهو كلام صدق لمن يصدر عنه مع نفسه قبل أن يقدم للآخرين مشفوعاً بالتجربة والبرهان.

على هذا النحو، فإن الكلام يقدم تلك الدلالات التي من شأنها الولوج إلى تكوين الاتجاه والميل والانجذاب إلى الخطاب المقاوم كمثال يحتذى في حلّ معضلة الصراع مع العدو الصهيوني، باعتباره فعل مبادرة واقتدار وليس فعل مغامرة وانهزام.

خلاصة

أفصحت الصفحات السابقة عن تبيان الوظيفة والدور الاستنهاضي الـذي اضطلـع بـه العمـل المقاوم فـي لبنـان، والـذي شهد حـالاً من الاستقطـاب على مستـوى الأمة العربية والإسلاميـة، وبرزت معه قيادة السيـد حسـن نصـر الله كقيـادة استقطابية رفيعـة المستـوى، وتتمتع بجاذبيـة متميـزة و محورية، تشـدُّ إليها الجماهير نحـو العمل المقاوم نفسـه، والذي راح يتمفصل مـع النماذج الثقافية السائـدة والمتضمنة لنمط من القيم والمعايير على أنها ممكنات تحمل معاني ايجابية يتقوم بها الوعي والوجـدان والمتخيل الذهنـي لهذه الشعوب، وتنشد مطابقتها فـي الواقـع المعاش الذي حفل بالكثير من التـردي والخواء فجاء العمل المقاوم ليجسد أحد أهم التعبيرات الفعلية التي أخرجت هذه الممكنات إلى حيز الوجود.

وبطبيعـة الحال، فإن اللحظة التاريخية لهذا الواقع المأزوم بتراجعه الدراماتيكي والمتداعي إزاء المشروع الصهيوني الذي كان يشهد تقدماً في المنطقـة العربية الإسلامية، شكل أحـد الممكنات في بروز القيادة التاريخيـة المعقـودة اللواء للسيـد حسن نصر الله، بوصفـه يتربع على رأس قيـادة المقاومة. غيـر أن اللحظـة التاريخية وحدهـا لا يمكن أن توفـر كل الممكنـات التي تتيح لهذا النـوع من القيادة البـروز. ذلك أن ثمـة عوامل أخرى تعوزها المقاربة لكي تكون النتائج أكثر تحديداً وأوثق

ارتباطـاً بالموضوعية، تتمثل بالكشف عـن جوهر الأسباب الكامنة وراء صعود هذا القائد الكارزمي.

ومـن هنـا فـإن التوجه نحـو دراسـة الخطـاب السياسـي للمقاومة وإستراتيجيتهـا الاستنهاضية انطلاقاً من الخطـاب المكتوب من كلام السيد نصر الله نفسه، والإطلاع على مضمونه ودلالاته كشف عن طبيعة الوظيفـة والدور الـذي تضطلع به المقاومة، كما كشـف أيضاً من خلال الفهـم والتحليل، عن المزايا التـي جعلت منه خطابـاً استنهاضياً ومن صاحـب الخطاب قائداً كارزميـاً يضيف إلى العمل المقـاوم الكثير من الجاذبيـة والانشداد، وموئـلاً مرجعياً للتماهي معه مـن قبل الجماهير علـى امتداد المنطقـة. فالدور القيـادي للسيد نصر الله ليس مقروناً بموقـع رئاسي حتى يقتضي الطاعة بمعزل عن حال الإقناع أو عدمه كما فـي الدول التسلطية أو الديمقراطيـة، ولا بكونه زعيماً لطائفة أو لحزب معارض، وإنما بوصفه زعيماً شعبياً تحول على هذا النحو بفضل القضية المطروحـة وهي فعل المقاومـة في التحرير والاستنهاض، وهي قضية لا تستوجـب كلاماً فـي الرفاهية أو النمو الاقتصـادي وسائر مقتضيات الإدارة فـي الدول. وإنما كلاماً من نوع آخـر يقتضي الانقياد نحو الفعل الجهادي والاستشهادي المحتاج في طبيعته إلى إقناع من نوع آخر، إذ لا يتوقع اندفاع الإنسان نحو إنهاء حياته أو الاستعداد للتضحية بالممتلكات وتحمـل تبعات الموقف المؤيد دون مسوغات عقلية ووجدانية تدفعه نحو هذا الفعل.

بطبيعة الحال إن الفعل المقاوم نفسه باستناده إلى العوامل المحركة للوعي وارتكازه على الوجدان الشعبي والذاكرة التاريخية وتمفصله مع منظومة القيم الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية السامية يحمل بحد ذاته كل ممكنات التحفز السلوكي نحو التماهي مع الجهة القائد لهذا الفعل.

ولكن يبقى للكلام وقع آخر، لما يختزنه من ممكنات الإقناع وحشد التأييد، ودحض الافتراء، وتبيان طبيعة الآليات المستخدمة وتبيان الاستراتيجيات، وكل ممكنات التسويغ من أجل الوصول إلى الأهداف. ولذلك فإن منهجية الخطاب الكلامي وطبيعته فضلاً عن كونه خطاب تسويغ، إلا أنه يلعب دوراً بارزاً في الكشف عن كارزمية القائد الميداني الذي يتحول كلامه إلى سلطان على النفوس دون أن يكون متأسساً بالأصل على سلطة سابقة عليه.